SECRETAIRERIE D'ETAT

PREMIÈRE SECTION - AFFAIRES GÉNÉRALES

N. 536.932

Du Vatican, le 4 avril 2003

Monsieur,

Par l'intermédiaire de la Nonciature en Syrie, vous avez écrit au Saint-Père, à propos de la situation en Terre sainte.

Je suis chargé de vous en remercier vivement de la part de Sa Sainteté, qui a été sensible à vos paroles poignantes concernant le drame humain qui se déroule dans cette région et la condition dramatique des chrétiens, toujours moins nombreux, qui y vivent. Le Pape vous assure de sa prière quotidienne pour la paix, notamment en Terre sainte, et pour toutes les victimes de ce conflit. Confiant à Notre-Dame de Soufanieh vos intentions personnelles, il vous accorde de grand cœur la Bénédiction apostolique, qu'il étend à tous ceux qui vous sont chers.

Heureux de me faire l'interprète du Saint-Père, je vous prie d'agréer, Monsieur, l'expression de mes sentiments cordiaux et dévoués.

+ Sandri

+ L. Sandri
Substitut

Monsieur Antoine MAKDISSI
DAMAS

العَذراء تَختار سَكَناً

العذراء تختار سكناً

بقلم

الأستاذ أنطون مقدسي

تأملات في الصوفانية

العذراء تختار سكناً

العَذراء تختار سَكَناً

بقَلم

الأستاذ أنطون مقدسي

تأمّلات في الصّوفانية

محتويات الكتاب

يوم رأينا الام القديسة	٧
ايقونة الصوفانية سيدة دمشق	١١
ربَّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به	١٥
ما أتى ابن الانسان ليُخدَم بل ليَخدم	٣٢
الام القديسة تدعوكِ يا ميرنا	٤٢
عندما تفتح السماء ابوابها	٤٧
سأعطيكم ما هو أقوى من الزيت	٥٦
الخيار الحاسم	٥٩
الرسالة الصامتة	٦٦
الجراح تنطق	٧٧
قولي لنا يا ميرنا	٨٦
على درب الصليب	٩٢
سأربي جيلي فيكِ	٩٩
ثلاث مسائل	١١٠
لا بدّ من حمل الصليب	١١٨
رسالة الصوفانية	١٢٦

* * *

العذراء تختار سكنًا

يوم رأينا الأم القديسة

يومًا رأى الناس العذراء بينهم. كانت فاتحة ذراعيها تحتضنهم، فهرعوا اليها، فرحّبت. كل ما فيها كان يرحب بهم: ابتسامتها العذبة، نظرتها الوديعة، رأسها الحاني على بؤسهم وحنان يفيض من جسدها فيعيد اليهم دفء الحياة.

بسرعة البرق انتشر الخبر، نقلته الأشياء قبل الألسن الى الملا، بشرى، وفورًا أشرق على الأزقة القديمة، بهجة طافت منعطفات المدينة وأحياءها العتيقة فأيقظتها: كانت تعيش حلمًا مزعجًا، وها هي تعود اليها حياتها الطبيعية.

هدوء،

صمت،

سلام غلّف دمشق

غريب! لم يتغيّر حرف واحد في نظام المدينةالألفي، زحمة أسواقها، حركتها الصاخبة، بيوتها الحيية تختفي وراء جدرانها العالية، أصوات الباعة هي هي، ومع ذلك لم يبق شيء على ما كان عليه، ربيع صخب انتشر على المدينة، روح مرح ونشاط، دبّت فيها حياتها، جعلت كل شيء فيها على غير ما كان عليه.

قال الحكماء الفهماء رؤساء الشعوب: تلك أساطير يصدّقها بسطاء الناس. الّا أن الشعب آمن بما رأى وأحسّ، تلك الأم القديسة عرفناها، عرّفتنا بذاتها. فعندما تأتي تصحبها آياتها.

وتساءل الناس بعد ذلك بكثير: كيف كانت العذراء في تلك الأيام؟ جالسة أم واقفة، تمشي على الأرض أم تمرّ كالنسيم؟ أرقّ من النسيم. ما كان لون ثيابها؟ ما يذكرون انهم قالوا لها:

ـ طال غيابك عنا، يا أمّنا!

ـ أنا دومًا معكم، كنت وما أزال وسأبقى معكم الى الأبد! أنا الحضور الدائم..

ـ أنحن اذًا الذين غبنا عنك؟

ـ الآن نحن معًا. آمل أن نبقى معًا؛ صلّوا كي نبقى معًا الى منتهى الدهور، وبعد الدهور...

فهموا بعد ذلك بكثير، بكثير، فهموا يوم استعادوا هذا الحوار، أن حضورها كان يقظتهم، وأنها هي التي نبّهتهم الى وجودها، وكانوا قد تناسوه... أدركوا أن كثيرين كثيرين آثروا النسيان فغمضوا عيونهم وأصمّوا آذانهم فلم يروا ولم يسمعوا، هؤلاء صلّوا من أجلهم.

ذكروا أيضًا أنّهم سجدوا وصلّوا، فرحوا وبكوا. أيامًا وليال صلّوا، جباههم التصقت بالارض، وبأفواههم قبلوا المكان الذي داسته أقدامها وحيث تركت أثرًا منها. بعضهم ما زالوا يصلون حتى الآن. لم يدروا ما اذا كانت دموعهم دموع ابتهاج بحضورها، أم دموع أسى على أيام وسنين قضوها ضالين تائهين في صحراء البشر. كل ما يذكرون أن دموعهم سالت حتى الأرض. وكانت، هي، تضمّ كلاًّ منهم الى صدرها وتمسح دموعه بمنديلها الأبيض.

... وكانت تغفر،

حملت اليهم بركة من اليه وحده تقدم الصلاة وغفرانًا من يده، وحده يقبل توبة التائبين. وهو الغفور الرحيم.

وكانوا سعداء سعداء، لا حدّ لسعادتهم. حلّت عليهم سكينة الرب، فكانوا في سلامه تعالى فرحين، لا يسألون عمّا كان وسيكون. الله نوري وخلاصي فممّن أخاف؟ المولى حصن حياتي فممّ وممّن اخشى!...

الغريب أن الاولاد كانوا أقدر على ادراك الحقيقة من أمهاتهم وآبائهم، فلم يترددوا، لم يخافوا، لم يكثروا من الأسئلة، بل توجهوا توًّا الى الأم القديسة وارتموا بين يديها، كما ترتمي النحلة على الزهرة والفراشة تداعب نور الشمس،

وهي أجلستهم على ركبتيها، فأسند كل منهم رأسه الى صدرها، فقبلتهم، باركتهم كلاً منهم بمفرده، أخذتهم بين أبنائها الأقرب اليها والأحب على نفسها، وهم حقًا كذلك. ويلتصقون بها، يختبئون بين ثيابها تشجعهم على مداعبة شعرها. وكانت فرحة وكانوا فرحين بفرح سيكون رصيدهم عند التجربة وفي مواجهة الشرير.

هؤلاء هم الذين أظهر لهم الآب السماوي حكمته وأخفاها عن الحكماء والعلماء والمتكبّرين.

يومًا اختفت العذراء. وكما ظهرت فجأة، فجأة توارت. هكذا قالوا. بسرعة أيد الفهماء: أما حذرناكم؟! تلك أخيلة، رؤى، أساطير... وأقاويل بسطاء الناس يرددونها، تتناقلها ألسنتهم فتصبح حقيقة واقعة... والأكثر فهمًا رفعوا أصواتهم مستنجدين به تعالى: نعوذ بالله من شرّ المنافقين الدجالين، المشعوذين السحرة... يرمون شباكهم تصطاد الأغبياء والحمقى.

كانت السلطات السياسية والمدنية أكثر فطنة. فقد احترمت خشوع الشعب وتقواه. بعض من رجالاتها اشتركوا في الصلاة، والبعض الآخر عرضوا خدماتهم فلم يتردد المتحذلقون في جوابهم: أجل، من مصلحة السلطة أن يلهو الشعب بتماثيله ودماه، فينسى قصور السلطة والبؤس الذي هو عليه...وينسون أن رجالات السلطة من هذا الشعب، وأن الشعب يكشف ذاته، والانسان حقيقته ـ ما له وما عليه ـ اذ يمثل عاريًا أمام الله، وهو يقرع صدره مع العشار فتصرخ خلايا جسده مرددة: يا الله اغفر لي أنا الخاطىء.

والايمان مسؤولية. اذا أتيت المذبح تقدّم قربانك، وذكرت أنك أذنبت الى قريبك، فخير لك أن تترك المذبح والقربان فلا تعود الا بعد أن يصفح عنك أخوك.

ومن ثمّ فأن بسطاء الناس عاشوا بقربها فبكت معهم وفرحت لفرحهم.

هنا كانت. أليس كذلك! اذ هي هنا دومًا. ففي المكان عطرها السماوي، وبعض من نورها يملأ الغرفة التي تجلّت فيها آياتها أول مرّة فجعلتها رحبة كالسماء، بهية ببهاء القديسين والأبرار. وابتسامتها العذبة ألا تطوف أرجاء المكان فيصبح حنانًا كلّه. هنا حلّت وباركت، ومنها نلنا بركة الآب السماوي. يومها تفجّر الزيت من الأيقونة الصغيرة، فتلقيناه، وبه تقدّسنا وقدّسنا أبناءنا وذوينا، مدينتنا،

بلادنا... والعالم كلّه. بركة العلي العظيم تطوف الدنيا، تنزل على من يفتح صدره لها فيتلقاها، وقلبه يمتلىء منها...

...كلماتها ما تزال ترنّ في آذاننا وتنحفر في قلوبنا، أنا معكم. كنت وما أزال وسأبقى معكم الى الابد! أويمكن للأمّ أن تترك أولادها. أنتم أمانة في عنقي، سلّمني اياها الآب السماوي ولن أخون الأمانة ان شاء الله.

ـ اذا نحن الذين تركناك؟

يومها فهمنا الحقيقة المرة: يوم لا نرى الأمّ القديسة، يوم لا نشعر أنها تعيش معنا، فينا، بيننا، فهذا يعني أننا نحن أهملناها، وضعناها في الدرج، وانصرفنا الى أعمالنا، حتى كأنها، وهي التي تعنى بشؤون حياتنا كلّها، غريبة عن اهتماماتنا. الحق، أيتها الأمّ القديسة، اننا قد انسقنا مع أنانياتنا ومع كبريائنا.

«لا تعبدوا ربّين، الله والمال» قال المعلم الالهي، وقال ايضًا: «من نظر الى امرأة واشتهاها فقد زنى» تلك ينابيع سوداء للشرّ، تمتدّ في الجسد، الكبرياء، حب الذات، الرغبة في التسلّط على الآخر واذلاله، حجبًا كثيفة نقيمها بيننا وبين الأمّ القديسة فلا نراها.

ـ تلك هي الخطيئة، يا أبنائي، تحجب عنكم النور. فنهاركم ظلام. نهاركم وليلكم سواء بسواء. وما أكثر سقطات الذي يسير في الظلمة.

وها نحن نخرّ سجّدًا، رؤوسنا بمحاذاة الارض وجباهنا تعفّر التراب.

ـ صلّوا يا أبنائي، صلّوا ولا تملّوا

ـ أنا ضعيف، يا أمّي، ضعيف حتى التلاشي والموت، سرعان ما أستسلم للجسد. والجسد هو كبرياء المناصب، جبروت المال، يدوس أعراض الناس، يدنس شرفهم وشرفه. الجسد هو الثأر، كالنار تلتهم ذاتها وهي تلتهم الآخر.

ويرتفع صوت من الجمهور:

ـ أسكب أمام الرب تضرّعي

وآخر:

ـ انظري باشفاق الى شقاء أجسادنا واشفي أمراض نفوسنا.

وثالث:

ـ أنا اعترف لله القادر على كل شيء ولكم أيها الاخوة، خطيئتي عظيمة. فيردد الجمهور معه:

ـ أجل خطيئتي عظيمة. صلّي لأجلنا، يا قديسة، يا مريم.

وتمتد الصلاة ساعات وساعات. فلا تمل ولا تكل. ها هي الساعة تدق منتصف الليل. ونحن ذاهلون. لقد تلاشى الزمان... والمكان... فالأرض سماء والسماء أرض. تلك قدرة الأمّ القديسة التي عادت الينا بآياتها. فالكون نشيد يسبح ممجّدًا الذي خلقه وخلقنا لنعبده. وتتفتح المواهب. فثمّة كثيرون، نساءً ورجالاً، يرتجلون الأناشيد، ونحن نردّد. فكلّ من يتكلّم أو يفسّر فبأسم الكل وللكل.

ما أجمل أن يجتمع الأبناء الى أمهم، يبثونها همومهم، يحدّثونها عن أتعابهم وآلامهم، وهي ترفعها الى الذي خلقنا وخلقها وشرّفها على العالمين لتكون شفيعة لكل من يطلب شفاعتها.

ويرتفع صوت جميل مهيب من الجمهور مرنّمًا:

انّ البرايا بأسرها،
تفرح بك، يا ممتلئة نعمة
محافل الملائكة وأجناس البشر
لك يعظّمون
أيتها الهيكل المقدس والفردوس الحي
فخر البتولية
فسبحان الذي جعل من أحشائك عرشًا
وبطنك أرحب من السماوات!

قلت: ما أعجب أعمالك يا الهي، كلّها بحكمة صنعت!

هذا البيت كان البارحة مغمورًا لا يعرفه الا أصحابه وذووهم ومن لهم علاقة بهؤلاء. وها هو يصبح، بين عشية وضحاها محط أنظار أناس كثيرين يتكاثرون باستمرار. فكأن طائر الفرح رأى وسمع ثم أخذ يحطّ هنا وهناك في أماكن متفرّقة من دمشق وسوريا، فلبنان وفلسطين والاردن... والعالم... وما يزال منذ سبع سنوات وسيبقى الى ما شاء الله ينقر على الابواب هاتفًا: استيقظوا أيها النيام، هبّوا أيها الكسالى المتقاعسون والمتردّدون، فأنتم على موعد مع الأم القديسة!

تلك هي البشرى الطيبة التي نقلها الرعاة في تلك الايام الى بيت لحم، وما يزال العلي العظيم ينقلها بأشكال مختلفة وأصوات متعددة الى الناس أجمعين، من هم على وجه الارض ومن سيأتون اليها حتى منتهى الدهر. كان قد أخبر عنها منذ بداية العالم ثم حقق الوعد اذ حققها، وهو يستخدم من يشاء لنشرها، النبي والولي، القديس والقديسة، الانسان البسيط قبل الحكيم الفهيم، والعادي قبل العالم العليم. لكل امة بلغتها وفي حدود تقاليدها. لا تقل: هذا مخطىء وذلك بريء. كلنا خطأة أمام الله. أولم يقل يسوع لجمهور اليهود: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها (أي الزانية) بحجر. وعندما يختار انسانًا يطهّره من اثمه ويجعله أهلاً لنقل رسالته.

انـه على كل شيء قدير.

كانت، بادىء الأمر، علامة صغيرة، تكاد لا ترى. سرعان ما فهمها الشعب وهرع الى البيت يصلي، يبكي ويضرع، يفرح ويصرخ:

المجد لله في الأعالي
وعلى الأرض السلام
نسبحك، نباركك، نسجد لك.

لم يسأل الشعب مع المتسائلين: لم هذا البيت لا غيره؟ لم يشك مع المتشككين: علام هؤلاء الناس لا سواهم؟ علام هذه الايقونة التي تطبع بألوف الوف النسخ كل عام وتوزّع مجانًا؟ وعلى بعد خطوات بيوت أجمل وأناس أكثر

تقى وايقونات رسمها، اكرامًا للأم القديسة، فنانون ملهمون بينهم الكاهن الورع والرسام المتخصص.

لم يفتح الشعب دفتر الزوج والزوجة فيقرأ بين الأسطر، بعدها، قبلها ثم يطلق العنان لخياله فيخترع ما تمليه عليه الكبرياء الشخصية. فلطالما استثارت الخلافات الصغيرة أحقادًا دفينة.

يكفي الشعب أن الأم القديسة بدأت بآياتها في حي الصوفانية وفي هذا البيت بالذات تاريخًا جديدًا. أوتظنون أن الله تعالى كلّم العالم مرّة واحدة، أو أتى اليه يومًا ثم غاب؟ انّه الآتي دومًا، كما يقول، وكلما اجتمع اثنان باسمي أكون بينهم، يقول ايضًا، فما بالك اذا صارت باحة الدار تغصّ بالناس، يجتمعون عفويًا مع غروب الشمس، بينهم الغريب والبعيد، العربي والأجنبي، الكبير والصغير، العالم والأمي ... يصرخون بصوت واحد:

يا أبانا الذي في السماوات
ليتقدّس اسمك
لتكن مشيئتك على الارض كما في السماء

أجل أصم الشعب آذانه عن الشائعات والأقاويل يطلقها المغرضون، وبها يتوسعون الى بعض المقامات الدينية العليا. والخيال المريض يحوّل هذه الحكايا الى وقائع.

الشعب آمن. الأمّ القديسة استجابت لايمانه. سرعان ما تكاثرت نقطة الزيت. كانت الأمّ القديسة قد طلبت أن توضع الايقونة العجائبية عند مدخل البيت في الجدار الذي يحيط بالدار كي يراها كل عابر سبيل. فخالق الشعوب والأمم لا ينتمي الى شعب ولا الى أمّة. والذي تتوجّه اليه الطوائف، لا يفضل احداها الاّ لتقواها وبرّها. وكذلك أنبياؤه وأولياؤه، الناس عندهم سواسية من حيث المبدأ. فالذي صفت طويّته فتوجّه نحو عمل الخير هوالأقرب اليهم. والله سبحانه يختار من يشاء لينقل رحمته الى العالمين. وقد يكون سرّه في أضعف خلقه، كما يقول المثل العربي.

أجل رفعت الايقونة العجائبية في بيت صغير ضمن الجدار الخارجي، وعند

قدمي العذراء جرن صغير ينسكب فيه الزيت عندما يفيض، وأمامها مصباح كهربائي صغير يهدي اليها السائل عنها... ولكن أخذت عنها، بادىء الأمر نسختان: الواحدة وضعت في مكان الاولى الأصلية حيث ظهر الزيت أول مرة. والثانية تتصدّر الباحة في اطار مثبت في الجدار، حولها كان الناس يتحلقون مع غروب الشمس للصلاة. وكان في كل منها، عند قدمي العذراء جرن صغير يفيض اليه الزيت عندما ينسكب من الايقونة. وكان الناس حريصين، من الدقيقة الأولى على ألا تضيع نقطة واحدة من الزيت العجائبي. فكانوا يلتقطونه في قطع صغيرة من القطن المعقم، يدهنون به رؤوس الاولاد على الخصوص. واذا كان ثمة عضو من الجسد مريضًا يتمسح به مرة ومرات. كثيرون كانوا يلفون قطعة القطن هذه، وغيرهم ـ ايضًا كثر ـ كانوا يضعونها ضمن قطعة من النايلون أعدّت لهذا الغرض ويعلقونها على صدور أولادهم أو صدورهم. وكان للزيت هذا مفعول عجائبي، كما أكد كثيرون من المصلين.

ويتبرع أحد أصحاب المطابع من أصدقاء الصوفانية بطبع عشرة آلاف نسخة من الايقونة العجائبية توزع مجانًا لمن يطلبها. وتتوالى الطبعات في كل موسم توزع دومًا دون أي مقابل، لا في القطر السوري وحده، بل أيضًا في أقطار عربية أخرى، ومن ثم في فرنسا والولايات المتحدة الاميركية فأمريكا الجنوبية وأماكن أخرى لا تحصى.

مجانًا أخذتم مجانًا أعطوا

الأغرب والأعجب هو أن الزيت الذي بدأ في الصوفانية انتقل منها مع النسخ الى أحياء دمشقية أخرى فمدن وقرى سورية وعربية وغيرها أجنبية... وما يزال وهو مرتبط على الغالب بالصلاة يرافقها أو يعقبها وقد يسبقها

والروح يهبّ أين وأنّى شاء.

* * *

ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به

كنت قد زرت الصوفانية مرارًا مع الضحى، عند الظهيرة وقبيل الغروب... في الايام العادية وفي المواسم الخلاصية كالجمعة العظيمة وسبت النور أو عيد العذراء (١٥ آب) وذكرى ظهورها (٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٢)... حيث تكتظ الدار بالمصلين منذ بُعيد الظهر وحتى منتصف السهرة، ويصعب على المرء أن ينتقل من مكان الى آخر. ويومًا رأيت في الشارع المؤدي الى الدار بشرًا يوازي عددهم عدد الذين في الداخل. وقد تمتد الصلاة ببعضهم حتى ما بعد منتصف الليل والى الفجر أحيانًا. كان الاقارب والجيران والاصدقاء قد تباروا مع أهل البيت في تزيين جدران الباحة وسقفها، فكبروا الايقونة العجائبية وأحاطوها باطار لائق وعلّقوها، هي وايقونات أخرى للعذراء مريم وابنها يسوع المسيح بحجوم مختلفة على الجدران. وكتبوا أيضًا على الجدران بين الايقونات عبارات العذراء وآيات أخرى مقدسة. كما زينوا السقف بالمصابيح الكهربائية والشرطان الحريرية الملوّنة...

قلت: من أين يستمد هذا المكان روعته وجلاله؟ اذ لو مرّ انسان عادي يجهل ما يجري في هذه الدار من خوارق لوجد الزينة هجينة وفي مكان ليس معبدًا مسيحيًا. وربما تذمر من هذا التراكم المرتجل وشك في ذوق أهل الدار... لكن يبدو لي من وجه آخر، انّه اذا استمر دقائق في المكان يتأمله شعر برعشة غريبة تخترق جسده، فكأن في المكان شيئًا ما غير عادي يملأ الجو، ويظهر في حركات أهل البيت، في تواصلهم مع بعضهم، مع الجيران، مع الذين يقصدون البيت مصلين، زائرين فضوليين أو أقارب مستطلعين. ولا تلمح في مضمون حديث أهل البيت أو في اهتماماتهم ما يسترعي انتباهك للوهلة الأولى؛ فهو حديث أهل الحي وهي اهتماماتهم، حتى عندما تسأل عن آيات الأم العذراء، عن ظهوراتها العجائبية، عن كلماتها ويجيبونك، فالخارق للعادة يصبح عاديًا مألوفًا في كلامهم المباشر، العفوي والبسيط. الاّ أنك قد تلمح في هذه البساطة التي قد تبلغ حدّ السذاجة، وبعد الكلمات بعدًا آخر ربما يخترق الحجب النفسية ـ الاجتماعية التي يفضح بها الانسان ذاته. وعندها تلقي سلاحك وتستسلم... وقد تذكر صلاة يسوع:

أشكرك، يا أبي، اله السماوات والارض، فقد أخفيت حكمتك عن العلماء والفهماء وأظهرتها لهؤلاء الصغار أبنائك.

قلت: غريب هو الانسان! كم يتفنن في ابتداع الأقنعة التي تحجب حقيقته عن ذاته وعن الناس. فالثياب الملونة، المكياج وعقاقير الزينة، الألقاب والأوسمة، البذات الفضفاضة والقبعات المزركشة، العبارات المنمقة، الأدوار التي يمثل، كل يوم وأحيانًا كل ساعة، اللياقات والعواطف والانفعالات... كلها وجدت لتجعل منه ممثلاً في مسرحية، لا يدري أهي مأساة أم مهزلة، لا يعرف كيف أتى اليها أو اقحم فيها وكيف كان ذلك... الهام انه يتقمص دوره وأدواره، ويؤديه، يؤدي الادوار ويصدق ذاته. ويومًا تأتي ساعة، ربما كان يلقي فيها خطبة حماسية، يسدل الستار أمام وجهه، ويقولون له ببساطة مطلقة : انتهى دورك!

كم هي بليغة كلمة باسكال: أويمكن للملك أن يدرك انه حقًا ملك عندما يرى ذاته عاريًا.

ويضاهيه في القوة التعبيرية، وان كان من وجهة نظر أخرى، قول سفر أيوب: عاريًا خرجت من بطن أمي وعاريًا أعود الى الارض. والأرجح أن اصل هذا القول حكمة شعبية ما تزال منذ القدم وحتى اليوم على ألسنة الشعب في بلادنا، ترددها على الخصوص الاوساط الاسلامية بأشكال مختلفة، منها قولهم: عاريًا يأتي الانسان الى الدنيا وعاريًا يخرج منها. والحق انه اذا أسقط الانسان الأقنعة التى يختبىء وراءها، فهو دومًا عار أمام ذاته. وهذا هو أحد معاني الصلاة الأعمق. فاذا كان يسوع يطلب منا أن نتقمص صلاة العشار:

يا الله ، اغفر لي أنا الخاطىء

أو أن نقر بذنبنا أمام الله:

خطيئتي عظيمة
أنا أعترف بذلك

فليضع كلاً منا امام مسؤولياته، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، لا ليعرف ما هو حاضر أمامه باستمرار.

والحق أن ما يعطي للصلوات القرآنية ـ وما أكثرها ـ مفعولها الاعمق والأقوى

في النفس هو أنها تسير في خطين متكاملين: التلاشي أمام الله تعالى وطلب المزيد من الرحمة... ولا أعرف في اللغة العربية صلاة تجمع بين بلاغة التعبير وعمق انكسار النفس أمام العزة الالهية، وبأقوى مما تجمع بينها خاتمة سورة البقرة:

ربنا، لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا
ربنا ولا تحمل علينا اصرًا كما حملته على الذين من قبلنا
ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به،
واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا
وانصرنا على القوم الكافرين
... يا أرحم الراحمين

علام قامت الأمم والشعوب...؟!

قلت: أويمكن للانسان أن يعرّي حقًا ذاته وأمام الله؟ أو يمكن للانسان أن يتخيّل حدًا يضعه في مواجهة نفسه عارية من التصورات والانفعالات التي أضافتها اليه مواقفه من البشر اذ يقرأ تاريخه وكأنه وقائع حياة شخص لا علاقة له به ولا يعنيه أمره؟ ليست المسألة بالسهولة التي نتصورها للوهلة الأولى عندما نسمع السؤال: ليست بالسهولة التي يتصورها علم النفس التحليلي. فسرعان ما يستحيل الخطأ خطيئة، والخطيئة خللاً يلازم الانسان فردًا أو جماعة، فكأنه جزء لا يتجزأ من وجوده، أو لكأنه من طبيعته. وان الطبيعة الانسانية الآ تاريخ الانسان، فردًا وجماعة، يسبق كلاً منا، ويعين له، لحدّ كبير، مساره ومستقبله. اقرأ على سبيل المثال تاريخ الشقاق بين الطوائف الدينية أو الفرق السياسية، أو تاريخ الذين ينتمون الى ايديولوجيا واحدة وقد تباعدوا الى حدّ استحالت معه المقومةالأولى حربًا كلامية فصدامًا بالسلاح.

فسرعان ما تلاحظ أن الخلاف الأوّل كان على قراءة كلمة أو عبارة صارت ملتبسة مع الزمن الفاصل بين صاحب النص والزمن. فكل فريق فسّرها بطريقته الخاصة من منطلقه أو كما تتناسب وميوله، أهواءه، غرائزه. واذ يحتدّ النقاش ويحتدم، يضيف كل فريق الى المعاني العقلية انفعالات تضخم الخلاف بحيث يصبح سوء تفاهم فقطيعة. وتتراكم مع الزمان القراءات والنظريات ولها الحجج

التي تدعم وجهات النظر المتعارضة.

ويجعل التباعد لكل فريق سياسته ـ الحزبية أو الايديولوجية أو الدينية ـ ومن ثم قوته ومكانته الاجتماعية فمصالحه الاقتصادية... وتاريخه الذي هو حصيلة تراكم كل ما تقدم. فالتأليف بين الفريقين ممتنع أو شبه ممتنع. فبأية وسيلة خارقة العادة، يستطيع الإنسان مواجهة هذا التاريخ في الكتاب، وهو كتاب الجماعة ـ أو احدى الجماعات ـ التي ينتمي اليها، يفاخر بها، يدافع عنها ويستمد وجوده الاجتماعي ـ التاريخي منها...فيعترف بأنها قامت من الأصل على سوء تفاهم؟

أفلا يقتضي تجاوز هذا التاريخ من المشاحنات والأحقاد الهامًا الهيًا أو تدخلاً سماويًا؟ أذنًا صاغية، نية صافية وارادة جبارة؟

ان الله على كل شيء قدير.

وليس البون شاسعًا في هذا المجال بين التاريخ الفردي والتاريخ الجماعي. فربَّ صديقين حميمين عاشا عمرًا في وئام كامل. وها هما يختلفان على منصب كل منهما يريده لنفسه، على مسلك ضمن الحزب الواحد، الواحد معتدل والآخر متطرف، على امرأة يعشقانها، كل منهما يريدها له وحده، أو على أقل من ذلك بكثير... يفترقان، يتباعدان... ويتبارى الناس حولهما في الايقاع بينهما، كل بهوى في نفسه؛ هذا ينقل كلمة يشدد عليها، ذاك يتلاعب بأحداث قصة عندما يرويها، غيرهما يزين له الخيال الحدث الذي يسرد وهكذا... فالقطيعة بين الصديقين نهائية أو شبه نهائية. وبشكل أعمّ فان المناقشة، المفاخرة، حبّ الظهور، الرغبة في الربح العاجل أو في المكاسب الرخيصة... كلها أوضاع قد تنتج عنها عداوات خانقة لا مُسوّغ لها، بين أناس غالبًا ما يجهلون بعضهم قبلها...

الأسوأ أن يظهر إنسان للآخر غير ما يضمر. فربّ زميل لك يكرهك لأنك أقدر منه على اجتذاب الشعب اليك. وها هو ينصب لك الفخ تلو الآخر، ولا يمكنه في الوقت ذاته الاّ أن يتودد اليك. ياهذا، أتكذب على الغير أم على نفسك أم على الله؟

تلك بعض من منابع الشرّ الأكثر شيوعًا بين الناس. مصدرها الأساسي، الكبرياء الشخصية. فمن الصعب على الانسان، على الخصوص اذا كان في منصب مرموق، الاعتراف بخطأ ارتكبه. فها هو يلجأ الى المخادعة. والكذب يستدعي الكذب. فالحلقة مفرغة.

كما أن الشر يتكاثر بفعل قوته الذاتية. فالخطيئة خطايا، والرذيلة رذائل.

قد تدق يومًا ساعة الحقيقة فها هو تعالى يناديك، ينادينا كلنا، مباشرة، بوساطة مختاريه من الأولياء والقديسين أو عبر حدث يقع لك. فعلام تتجاهل، علام تتجاهل؟ وأنت تعلم، كلنا نعلم أننا دومًا ماثلون أمام الله، اليوم وغدًا، قبله وبعده وفي كل ثانية من ثواني حياتنا. ايصدق فيك ما جاء في الكتب المقدسة: لهم آذان ولا يسمعون، عيون ولا يرون؟...

قال الشعب: رأينا الأمّ القديسة

قلتم: لا. تلك خديعة

وأصرّ الشعب. وضاعفت الأمّ القديسة آياتها، وأنتم تضاعفون جحودكم.

قلنا: سبع سنوات! ألا تكفي سبع سنوات من الصلاة المستمرّة كل يوم، كل يوم بلا انقطاع... وتكاثر بؤر الزيت المقدس التي انتقلت من دمشق الى حلب، ثم تجاوزت حدود القطر الى بعيد فأبعد.

قال الشعب: دعونا نجلس الى أمنا، نبثها شكوانا، نحدّثها عن آلامنا ومباهج حياتنا، نبكي بين يديها، وهي تواسينا، تمسح دموعنا بمنديلها الطاهر، فنعبرّ لها عن شكرنا وعن فرحنا الكبير بوجودها معنا. كنا ضالين في متاهة هذا العالم، فردتنا، هدتنا، وضعتنا في المكان الذي وجد لنا لنكون فيه.

ان كبير القوم هو خادمهم وليس الوصي عليهم لأنه خادم الرب الاله، يتلقى آياته تعالى أنى وأين ظهرت. وليس الحكم في ظهورها، ينفي منها ما يشاء هو ويثبت ما يطيب له. انه يصغي ويشرح والشعب يصغي معه.

والحكم أولاً لمن بيده الحكم. الذي لا اله الاّ هو، وهو على كل شيء قدير.

* *
*

لم تجد السلطات المدنية المتخصصة في الايقونة العجائبية، عندما اخرجتها أمام الناس من الاطار الذي وضعت فيه، لم تجد سوى ما كان متوقعًا ان تجد، أي ورقة بمساحة الكف، أمتن بقليل من ورق الكتابة العادي، طبعت عليها مصغرة،

احدى ايقونات العذراء، المرسومة على الطراز البيزنطي أو الشرقي اذا شئت، وقد أحيطت لحفظها ببرواز من الكرتون والبلاستيك والزجاج، على ما هو مألوف عندنا وفي العالم. ولهذا أعادها الذين فكّوها، بكل احترام، الى ما كانت عليه ووضعوها في المكان الذي كانت فيه، حيث يراها، ويرى الزيت الذي يرشح منها، أي انسان يطيب له ذلك.

ويبقى معلقًا سؤال هو أسئلة: من أين يأتي الزيت، عندما يأتي؟ علام يتوارى، وكأنّ شيئًا لم يكن، مع أنّ نقطة زيت واحدة تحدث في الورقة أو الخشبة التي تقع عليها أثرًا يستمر لأشهر وربما لسنوات؟ ويظهر الزيت اعتياديًا وليس بالضرورة وقت الصلاة، فعلام في هذه الصلاة لا في تلك، بهذه المناسبة لا في تلك؟...

وتراقب السلطات، علنًا وسرًا البيت والبيوت المجاورة، وربما الحي كله زمنًا لا أدري كم امتدّ. ويصغي رجالها الى الاناشيد والصلوات والادعية، المنشورة والمرتجلة فلا تجد ما يدعو الى الشبهة، والحق يقال أن رجال الأمن كانوا بمنتهى التهذيب واللياقة، فلم يشعر بوجودهم الشعب الوافد كل يوم بالعشرات الى المكان، الاّ في أيام الازدحام الشديد، عندما كانوا يساعدون شباب الاخويات والجمعيات الخيرية في تنظيم الدخول الى البيت والخروج منه بحيث يتمكن كل انسان من القيام بالزيارة المقدسة والاشتراك في الصلاة المستمرة. فالفوضى المألوفة في مثل هذه المواسم كانت وما تزال وستبقى ان شاء الله، هي وما يترتب عليها من ازعاج المصلين، في حدّها الأدنى أو المقبول.

وبما أو فيمن عساها تشتبه السلطات. فالمكان فسحة صلاة والوافدون اتوا للصلاة وحسب. وكل صلاة توجه الى العلي العظيم كي يرأف بهم فيبادر ويمنحهم سلامه لا سلام العالم. أما أهل البيت، أصحابه، اقصد الزوج والزوجة وأقاربهم الأقربين فقد وضع كل منهم ذاته، ليلاً نهارًا، وبنفس طيبة رضية، في خدمة العذراء وأبنائها دون أي مقابل. فقد أعلنوا مرات وعلى مسمع من جميع الناس، وسجلوا اعلانهم على لافتات وضعت في أماكن بارزة من البيت وعلى الجدران المطلة على الشارع، أنهم يعتذرون عن قبول أية هدية أو أي تبرع عيني أو مالي، من أي مصدر أتى. مجانًا أخذتم مجانًا أعطوا. فاصلاحات البيت، تزيينه، اضاءته بالمصابيح الكهربائية التي تجعل ليله نهارًا، تنظيفه اليومي، اعادة النظر في فرشه... وبالنتيجة اعداده لاستقبال أبناء العذراء وزوارها الذين صاروا أهل البيت،

وأهل البيت خدامهم، كل ذلك ونفقات أخرى كثيرة كان على حساب الزوج الذي قدم نفسه، ماله، كسبه للأم القديسة تتصّرف به كما تشاء.

ولم يتساهل أهل البيت، على ما أعلم، الا بقبول نسخة مكبّرة عن الايقونة المقدسة علّقت مقابل الايقونة الاصلية. كما أنهم يقبلون من وقت الى آخر باقة زهر صغيرة تعلّق فورًا الى جانب الايقونة المقدسة. وعرفت ان احد المؤمنين قدّم الورق اللازم لاحدى مطابع دمشق كي تعدّ لهم عشرات الصور من الايقونة المقدسة، فأصرّ صاحب الدار على أن يكون الطبع تقدمة منه للام القديسة، فرضخوا لطلبه. وقد وزعت هذه الصور على كل من يقبلها. وصار الزيت يرشح من بعضها كما كان وما يزال يرشح من الايقونة الاولى.

وأشهد شخصيًا أمام الله والعذراء القديسة والناس أني زرت البيت في أغلب أوقات النهار وعلى الخصوص في الأعياد الأساسية، فلم أر الزوج يومًا الا وهو باسم يرحب ، وفي ابتسامته بشاشة وحرارة طبيعيتان فيه. ثمة قوة خارقة للطبيعة استولت عليه، على زوجه، على بيته، وقد استسلم لها طواعية. ثمة أشياء خارقة للعادة تتم في هذا البيت فصار أداة طيّعة لها لأنها من لدنه ولخدمته تعالى. أما الزوجة، فكل مرة رأيتها تكون محنية الرأس وكانها تردد عفويًا، لا بلسانها على الأرجح، بل بسلوكها وحركاتها، عبارة العذراء للملاك: ها أنذا أمة للرب، فليكن لي بحسب قولك.

حلّل الزيت مرارًا، في أوقات متباعدة، وفي مخابر متعددة، منها الرسمي والخاص، العربي والأجنبي. وكان الجواب دومًا واحدًا: زيت زيتون خالص مائة بالمائة. وله في رأي العارفين من رجال الكنيسة، رائحة زيت الميرون الذي يدهن به رأس وأعضاء الطفل ــ أو الراشد ــ بعد المعمودية، في طقس خاص يعرف بأسم التثبيت. وهو من أسرار الكنيسة شأنه شأن المعمودية والزواج والكهنوت... ولزيت التثبيت اعداد خاص في طقس ديني يقوم به البطريرك أو الأسقف، اذ تضاف الى الزيت نباتات تعطيه رائحة ذكية منعشة، ثم يصلى عليه ويحفظ بعناية على أنه شيء مقدس.

وما عساهم واجدون في الزيت عند تحليله، أو في الايقونة بعد تفكيكها او في الأشياء المقدسة الأخرى عند تفتيتها ومعالجتها بالوسائل الطبيعية أو الكيمائية

المعروفة، حتى ولو كانت المشاهدة بالمجهر الالكتروني غير ما هي عليه بوصفها أشياء عادية مقتطعة من جملة موجودات الانسان العينية. فآيات السماء، وان كانت تتجلّى في اطاري الزمان والمكان، تتجاوزه تجاوز الشاعر للتاجر، المجاني للمحسوب... واللامتناهي للمتناهي. أنقول: انها من طبيعة لا مادية؟ ولكنها لا توجد بالنسبة للانسان الا عند اتحادها بالمحسوس الملموس الذي نطلق عليه اسم مادة. وفي انجيل يوحنا أن «الكلمة صار جسدًا وسكن بيننا». والحق أن كلمات مادة، مادي، روح، نفس، روحاني... وحتى جسد، جسدي استهلكت مع الزمن فكأنها نقد بلا تغطية. الهام والأساسي، اليقيني هو أن عالم الأشياء الذي نتعامل معه باستمرار، يسكنه وجود آخر، نعرفه بنتائجه. وهو، اذ يتخطاه، يجعله على ما هو عليه. وكان «ليبنتس» يقول: ان الأشياء الدنيا توجد في العليا بأفضل مما هي عليه بذاتها.

وزار يومًا من العام الأول لظهور الزيت، وبعد أن شاعت آيات الأم القديسة بين الناس، زار بيت العذراء في الصوفانية عدد من كبار رجالات الدولة، وقال لي الذين كانوا يومها بين المصلين، انهم وقفوا بكل احترام أمام الايقونة المقدسة، تأملوها، صلوا كل منهم على طريقته، فيما يبدو، ثم تقدموا من أهل البيت، عرفوهم بأنفسهم، تعرفوا اليهم، واستفسروا منهم عن الزيت، عن ظهورات العذراء وعن آياتها الأخرى. وتحدثوا الى المصلين، سألوا بعضهم عن شعوره، عن تفاعله، عما يحدث على مرأى ومسمع من كل الناس، وبعدها حيوا الجمهور، وودعوهم وانصرفوا في عيونهم دهشة، في نفوسهم تعجب، وفي قلوبهم اجلال عميق للأم القديسة، سيدتنا مريم. وكانوا على ما قيل، شاكرين المولى وحامدينه على النعم الكبيرة التي خصّ بها دمشق والقطر السوري. والذي أكبره الشعب في حكامه بينهم أنهم، أثناء وجودهم في بيت العذراء، وضعوا أنفسهم في مصاف الناس العاديين فتصرفوا كما يتصرف أي انسان آخر في موقف كهذا. أيوجد أمام الله تعالى كبير وصغير، غني وفقير، حاكم ومحكوم؟ ... كلنا سواسية أمامه تعالى، كلنا فقراء الى رحمته.

وسمعت بعضهم يقولون: يا ليت أن السلطات العليا الدينية تصرفت كما تصرفت السلطات المدنية، سواء جماعة الأمن أم كبار ممثلي الدولة. فهؤلاء كانوا وما يزالون موضوعيين، اذ تركوا الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. أما أولئك

فحاولوا أحيانًا ردع الناس عن زيارة بيت العذراء. والذي يسترعي الإنتباه حقًا هو أن الذين مشوا في صفهم كانوا على الغالب من وجهاء الطائفة، في حين أن الذين مشوا في صف العذراء كانوا في معظمهم من الشعب العادي البسيط. ومع ذلك لا يحق لنا أن نتهم أحدًا، أيًا كان موقعه من سلّم الحياة الاجتماعية. ولكن من حقنا التساؤل عن اختلاف المواقف بهذا الشكل الصارخ، وان كان الجواب عن سؤال كهذا صعبًا الى حدّ أكاد أقول انّه ممتنع. فالله وحده فاحص القلوب «يعلم السر وما يخفى». اذ ان الذي يوجه الانسان عفويًا في قضايا الايمان هو قلبه، أو قدرته على التعاطف، سلبًا وايجابًا مع الظواهر والأحداث التي تؤلف عالمه، أيًا كان مصدره، الارض أم السماء. والقلب أكثر قوى الانسان وملكاته استعصاء على التحليل. لا أظن أن الحق بجانب الذين زعموا أن من مصلحة السلطة استخدام الوسائل كلها لإلهاء الناس عن مآسيهم اليومية. اذ بينها الوسيلة الأنجح في هذا العصر لتوجيه الشعب، أي الاعلام الذي قلما يخطىء المرمى اذا أجيد استخدامه.

ومن ثمّ فان السلطات المدنية ــ من حيث هي كذلك ــ لا تعتبر ذاتها معنية بالشؤون الدينية الا ضمن حدود الأمن العام وراحة المواطنين؛ في حين أن السلطات الدينية مسؤولة مباشرة عن كل بادرة كبيرة أم صغيرة، لها علاقة ما بالدين والشؤون الدينية: فلا يحق لها التسليم بصحة ما يدعيه أحدهم ــ أو يروى عنه ــ من أن ثمة خوارق حدثت له أو أمامه. فقد يكون محتالاً أو ضحيّة وهم، فريسة مرض عصبي... والشعب ، بوصفه جمهورًا، سريع التصديق بكل ما يستثير خياله ويلهب انفعالاته، على الخصوص في الايام العصيبة والازمات، أو في المنعطفات التاريخية حيث تكثر متسارعة التبدلات وحتى الانقلابات الجذرية في كل مجالات الحياة الاجتماعية، والسياسية منها والاقتصادية وغيرها، وتأخذ الايديولوجيات ــ حتى الالحادية منها ــ شكل حقائق دينية أو مطلقة تفرض بالقوة. فالرأي الشعبي يميل الى الاعتقاد بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع.

فاذا ما اعتبرنا الامور من هذا المنظور ندرك حذر السلطات الدينية والسياسية من مناخ هو المرتع الخصيب للبدع من كافة الانواع، والمجال المفتوح للمغامرين، هذا يدعي الاصلاح، وذاك اعادة النظر في المؤسسات على أسس جديدة... ولم لا يدعي أحدهم النبوّة أو الاتصال بالغيب: والتاريخ حافل بتجارب مريرة أدّت الى تفكك أمم كانت راسخة الجذور، والى انشقاقات دينية وحروب

طائفية، ذيولها مستمرّة حتى أيامنا والى ما شاء الله.

الا أن في التاريخ شواهد كثيرة على عكس ما تقدم. فكم وكم من المصلحين الاجتماعيين والدينيين، كم وكم من المجددين وحتى من النبيين، قاومهم رجال السلطة بشراسة كبيرة. والدوافع كثيرة. فقد تكون دفاعهم عن تقاليد وعادات يعتقدونها مقدسة لا يجوز أن تمس. أو عن مناصبهم، عن دورهم في المجتمع، عن مهنتهم. وهم لا يكونون أيضًا شركاء في الفساد. فهذا أيضًا حاصل هو وأسباب أو دوافع أخرى كثيرة. تقلب شديد التعقيد، يجهله صاحبه نفسه، على الخصوص في حناياه الدقيقة وزواياه المظلمة. وتحضرني هنا كلمة يسوع: أورشليم، أورشليم، يا قاتلة الأنبياء والرسل!

ومن أسوأ ما يصيب السلطات الدينية هو أنها تستعين بأجهزة الأمن لمقاومة التجديد والمجددين وأحيانًا لنصرتها على من يقاومها أية كانت دوافعه. وعندها يكون الوجه الاجتماعي ـ التنظيمي للسلطة الدينية قد تغلب على وجهها الديني ـ الروحي وأرداه. وهذا هو الخطر الأكبر الذي تتعرض له الحياة الروحية لدى كل الأديان وفي كافة العصور.

وعندما يستأثر الوجه الاجتماعي ـ التنظيمي بالمؤسسة الدينية، يقلص الوجه الديني ـ الروحي فيجعل منه مجرد طقوس يرددها المؤمنون ببغائيًا مع رجال الدين. بتعبير آخر، عندما يصبح الايمان مؤسسة اجتماعية وحسب، يكون قد تفرغ من محتواه، فهو هيكل عظمي يستمر بحكم العادة. وقد يصبح هوية اجتماعية شأنه شأن العوامل المكوّنة للهوية أو للهويات الاجتماعية.

الوجهان يجب أن يتكاملا في الحقيقة. اذ ان كلًّا منهما ضروري للآخر. فالوجه الاجتماعي هو الذي يحقق الوجه الروحي على أرض الواقع وينظم حياة المؤمنين الروحية. فكأنه الجسد بالنسبة للروح، لا وجود لأي منهما دون الآخر: الروح هي حيث النمو والتجدد المستمران، والجسد هو حيث الواقع المعاش في الحياة اليومية، الفردية والاجتماعية.

ولكن من المؤسف أنهما قلما يتكاملان أو يتوازنان. والوجه الاجتماعي هو الذي يستأثر على الغالب بالوجه الروحي، وقد يمتصه في نهاية المطاف، فتصبح المؤسسة اذّاك غاية بذاتها، شأنها شأن المؤسسات الأخرى كالأحزاب والنقابات

والبلديات، تدافع عن نفسها بالوسائل المعروفة، المشروع منها وغير المشروع مع الأسف، فيهجرها التجدد. فهي هيكل عظمي يبحث عن الروح التي تحييه، والروح تبتعد باستمرار عنه، عندها يصبح الدين طائفة، ينحدر مع مزلق الطائفية وما قد تؤدي اليه الطائفية من صراعات لا حدّ لأذاها. أما الحياة الروحية في الظرف العصيب هذا، فهي من شأن قلّة قليلة تطلب منه تعالى باستمرار علامة تهدي الناس الى صراطه وقلما يبخل بها. حيث تكثر الخطيئة تفيض النعمة، يقول القديس بولس.

ومن له أذنان سامعتان فليسمع، وعينان رائيتان فلير.

ثمة وجه ثالث لمسألة التجدد في الحياة الدينية ـ الروحية قلما نتنبه اليه اعتياديًا، وهو انه دومًا خلافي، ومعرض بالتالي لأخطر المزالق، اذ انه خلافي لا في وجهه الديني ـ الروحي وحسب، بل أيضًا في أوجهه الأخرى، الاجتماعية منها والثقافية، السياسية والاقتصادية. وليس هذا التلازم بالأمر المستغرب. فالانسان، فردًا وجماعة، وحدة لا تنفصم عراها بحيث ان الروحي يستدعي السياسي، والديني الاقتصادي، وكلاهما مرتبط بالثقافي والاجتماعي... وقد يستمر بعض التجدد خلافيًا قرونًا والى ما شاء الله. ولا أعرف في تاريخ الانسانية مذهبًا دينيًا ـ أو سياسيًا ـ عالميًا أو ذا اتجاه عالمي استمر موحدًا زمنًا طويلاً. وهذا أيضًا ليس بالامر المستغرب اذا لاحظنا أن الوجود الانساني، الموحد في الأصل الأول وفي النهاية القصوى، متعدد بتعدد البيئات واللغات، التواريخ والتقاليد... فكل وحدة انسانية قومية أو ثقافية (وقد تكون هناك وحدات متجانسة) تقرأ المذهب وتمارسه من منطلق مختلف عن منطلق الوحدة أو الوحدات الأخرى. وبتعبير آخر فان لكل نص أساسي معنيين، تفسيرين (وربما أكثر). فثمة خطان (أو أكثر) يتجسد كل منهما في جماعة، ويختلط لتوه مع مختلف أوجهها الثقافية والسياسية، الاجتماعية والاقتصادية و... ويتلون بلونها، ويصير لكل خط مع الزمن تاريخه أو تراكمه الذي في التباعد، الى حدّ يصبح معه التأليف بين الخطين ـ أو بين الخطوط ـ عسيرًا وبمعنى ما ممتنعًا.

ويزعم كل خط أنه الأقرب الى الأصل فهو الأصح. وعندما تطرح مسألة الأصل الأول، نستثير معها مسألة حضور الماضي في الحاضر: ما هو، كيف يمكن أو يجب أن يكون؟

وينسى الجميع أن الأصل مستقبل، وأن الله تعالى، رب الزمان والمكان وهو الأصل باطلاق المعنى، ليس في الزمان والمكان، بل هو الآتي دوما كما سبق وقلت (سفر الرؤيا)

ولكن بالمقابل، فان السلطة الدينية ـ والسياسية ـ تصير ـ شأنها شأن أية مؤسسة أخرى محكمة البنيان ـ محافظة، تقدس الماضي. ففيه ظهر أنبياء الله وأولياؤه، وفيه كان القوم صالحين. اما اليوم فقد فسدت، ترِدّت القيم وعمّت الرذيلة، فحجب الله عن العالم رحمته حتى لتتصرف المؤسسة وكأن رب الزمان والمكان ارتبط، هو ورحمته بالماضي، أي بزمان ومكان محددين.

وينسون هنا أيضًا أن الذي «كتب على نفسه الرحمة» لم يبخل يومًا بآياته على أحد، وأنه «يطلع دومًا شمسه على الأخيار والأشرار». أفلا نتساءل ما اذا كنا نحن الذين اغمضنا أعيننا كي لا نرى وسكرنا آذاننا كي لا نسمع!؟

من حق الانسان أن يعلّق حكمه، عند الاعلان عن آية من آياته تعالى، أن يشك، يتربص، ولكن ليس من حقه أن يحكم أو أن يدين الغير في قناعاته. من حقه الاّ يجمع، ولكن ليس من حقه أن يفرّق «فمن ليس عليّ فهو معي» يقول يسوع. واذا كانت سبع سنوات من الصلوات المستمرة وما رافقها من ظواهر تفوق، ضمن حدود معرفتنا الضيقة، حدود الطبيعة، لا تشكل بالنسبة اليه حجة ما وبرهانًا له قيمته، أفيعمم موقفه هذا ويعطيه سمة الأطلاق؟

اتركوا، يا سيدي، الناس يبثون الأم القديسة همومهم، وقد اعتقدوا ويعتقدون أنها بينهم، أنها أتت لتنقل صلاتهم اليه تعالى. لكم قناعاتكم فلا تشككوا الناس في قناعاتهم، وأنتم تعرفون جيدًا القول الرهيب:

الويل لمن تقع الشكوك عن يده!

* * *

لن أنسى يوما لجأت فيه الى بيت الأم القديسة طلباً للسلام. كان قد جاء قبل يوم في الأخبار، أن اليابانيين، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، حكاماً وشعباً... زحفوا بالألوف الى هيروشيما حيث ألقيت أول قنبلة ذرية، ووقفوا صامتين خاشعين، متأملين مصلين أمام ضحايا مجزرة عادلت مجازر التاريخ كلها ونافت عنها. وزاد في رهبة الموكب أنه ضمّ بقايا حيّة من مشوّهي ذلك اليوم الرهيب. وتعيد الى ذاكرتي هذه الذكرى المفجعة الصور المروّعة التي ما برحت تعرضها شاشات السينما في العالم كله طوال عشر سنوات ونيف بعد اليوم الرهيب. ولم أتمكن طوال يوم كامل من زحزحة هذه الصور عن المكان الذي احتلته في كياني. ولم أعرف له مثيلاً في حياتي. فكنت أستيقظ في الليل على حلم ـ كابوس يحبس علي أنفاسي ويضيق علي الخناق. فكأن مآسي حياتي كلها تجمعت في واحدة استأثرت بشعوري كله، الواعي وغير الواعي، وامتدت الى جسدي بصورة موجات من القلق، حرارتها أشدّ من حرارة آب في تلك الأيام الحارة.

قلت: أو يمكن للوحش الكامن في كل منا أن يتملك أحدنا بشكل يدفعه الى تدمير مدينة كبيرة في لحظات. فثمة الفتك بملايين البشر واخضاع الباقين منهم ـ وهم بالألوف ـ الى عاهات جسدية ونفسية مروّعة لن تفارقهم مدى الحياة؟...

والأنكى هو أن الوحش هذا، ورغم أن الاشرطة المسجلة أرته بأم عينه النتائج الشنيعة لفعلته، أمر، بعد ايام، بالقاء قنبلة أخرى على مكان آخر من اليابان، هو جزيرة نكازاكي حيث السكان أقل عدداً وكثافة من سكان هيروشيما. وكان يعلم أيضا أن التلوث الذري سيشمل البيئة على امتداد كيلومترات من المدينة والجزيرة، طبيعة وحيوانات وسكانا هم وأحفادهم على مدى أجيال!

لم تفارقني، طوال يومين، هذه الفكرة وشريط الصور المرافق لها، وهي أن انسانا واحدا يستطيع بحركة واحدة أن يحذف من الوجود مدينة كبيرة، هي والطبيعة المجاورة لها والسكان المتواجدين فيها في تلك الدقيقة، اذ ان أكثرهم يموتون اختناقا، والباقون يتمنون طوال الباقي من حياتهم لو فارقوا الحياة يومها. فالتشوه الذي يصيبهم هو بمثابة موت مستمر. والأفظع هو أن الحكم بالاعدام هذا

على الحيوانات والنباتات، على الأجساد والنفوس سيستمر لسنوات، وحده الله تعالى يعلم عددها! الا يعدل هذا الأذى، فيما لو حدث مرة ثانية في منطقة واحدة آهلة بالسكان لا سمح الله، أذى حروب التاريخ كله منذ بداياته الأولى حتى اليوم؟ قل: وأكثر!

فلم أعجب؟ ربما لم يعجب غيري من ألوف البشر عندما نقلت الينا الأخبار عن الطيار الذي ألقى القنبلة الرهيبة، انه أصيب بعد القائها بنوبات هستريا قد تلازمه مدى الحياة، مع أنه بين المشتركين في الجريمة فعلاً ومباشرة أقلهم مسؤولية. ـ وماذا عن الذي أمر بالقاء القنبلة متذرعا بالحق الذي يعطيه اياه دستور بلاده، فهو المسؤول الفعلي المباشر الأول عن الجريمة.

عندما رأى أن اليابان لم تستسلم، لم يتردد في اعطاء الأمر بالقاء القنبلة الثانية. وكان ـ وما يزال ـ شعبه ـ جلّه على الأقل ـ معه. فهو في نظر هذا الشعب من مستوى كبار قادته، اليوم كما بالأمس القريب والبعيد!

ذلك هو الصلف الانساني، يريد بارادة قطعية، لا أن يستسلم الآخر وحسب، بل أن يركع ويسلم ذاته بلا قيد أو شرط. تلك ارادة القوة عندما يدفع بها الأقوى الى أقصى حدودها، وكثيراً ما يدفع بها الى هذه الحدود: ان التهم الآخر، ان افترسه. يفترس الحيوان حيواناً آخر أضعف منه. ولكن الحيوان ليس سادياً ولا حَيْسوبا، فهو يجهز على فريسته مرة ولكل مرة. أما الانسان فيستبقي الآخر، بوصفه كذلك، أمامه يلبي أوامره، يخدمه، يركع أمامه اذا أمكن كل دقيقة، كل ساعة، كل يوم... ومدى العمر. بهذا وبهذا فقط يشبع نهمه الى السلطة والتسلط حتى، فكأن الآخر ليس غاية بذاته كما أراده خالقه أن يكون، بل هو من ـ أجلي ـ أنا.

وتوبيخ الضمير؟ أهو الطيار وحده الذي عاناه فأفقده صوابه؟ أهو وحده بين ملايين المواطنين أدرك في جسده أنهم ارتكبوا جريمة لا تغتفر بحق الانسان؟

ـ كلا بدون شك. الا ان الأكثرية تصرفوا، على ما يبدو، وكأن فعلتهم مشروعة: ألم تنه الحرب وويلاتها التي كان يمكن أن تمتد سنوات، كما قيل لهم وللبشر أجمعين.

ـ سفسطة! مغالطة فظيعة. اذ ان القنبلة سببت من الويلات أكثر مما جنبت. وربما أن بعضهم كانوا فخورين بفعلتهم.

ـ صحيح! السؤال هو: علام يعمل الانسان الشرّ، وهو يتوهم ـ بالاحرى يوهم نفسه ـ انه يفعل الخير. فليحاسب كل منا نفسه بلا كذب أو تضليل، وبدون انتحال الأعذار، عن أعماله الكبيرة والصغيرة، الجماعية والفردية متسائلاً عن الدافع الكامن وراءها، أليست الكبرياء هي هذا الدافع في أغلب الحالات؟ وعندما تبلغ الكبرياء ذروتها يكون الوحش قد افترس الانسان فينا قبل أن يفترس الآخر.

ألا تدين بهذا التعميم السريع أنواع الكبرياء كلها!

ـ كل كبرياء عنيفة. وكل عنف يتجاوز حداً ما أعمى يسكت العقل والضمير ويفتح الباب على مصراعيه أمام الأذى، الشر... والاعتداء على حق الآخر...

ـ والثورة من أجل الاستقلال، حمل السلاح في سبيل الدفاع عن الوطن، الحرب من أجل استرداد الحق؟...

ـ مواقف مشروعة بدون شك. الا أن القنبلة ألقيت من أجل الامتداد على حساب الغير وأسعفتها دعاوة واسعة في تخدير ضمائر الناس واخضاع عقولهم لغرائزهم، فجعلوا من الشر خيراً!

كانت هذه الخواطر قد ملأت عالمي عندما مثلت أمام الأم القديسة، فقلت لها:

ـ أو يمكن أن أكون أنا، بمعنى ما، مسؤولاً عن قنبلة هيروشيما؟

فأحنت راسها وارتسمت على وجهها المشرق بعض من امارات الحزن والشفقة، فكأنها تقول لي: سل نفسك. فقلت لذاتي:

ـ ولم لا؟! فارادة الاستيلاء على الآخر تتسرب الى الكلام، الى الكلمة، الموقف، الخاطرة عند بداية تكوّنها، الى الرغبة وهي بعد جنين، الى الصورة عند انبثاقها وقبل تفتحها ونموها السريعين، كما تتسرب الحميات من مسام البدن كلها الى داخله، ثم تغزو أجهزته بسرعة خاطفة الى أن تتوضع في مكان عملها المفضل او الأسهل منالاً. ولكن البدن يقتصر عندها على واحدة من مهامه العديدة كي يطوق الجراثيم ويكافحها. فالحرب بينها حرب وجود أو لاوجود.

أما أنا فهل قاومت بقدر امكاني الصورة الدخيلة، هي وما استدعته وتستدعيه من أخيلة وتصورات وحركات أو تنهدات هي امتدادها الطبيعي، أم استسلمت لها، ولأي حدّ استسلمت؟ هل تصديت مثلا أيضاً للرغبة بالانتقام ـ حتى بالخيال ـ من الآخر الذي أزعجني أو أساء الي؟... أم اعتبرته قريباً وسامحته (وهذا قلما

يحدث)؟ هل خجلت من نفسي لأن ملكة الكلام خذلتني فلم أجب على النكتة اللاذعة الموجهة الي بمثلها أو بأبلغ منها؟... وبعد فان الشر يفرّخ، ينمو، يتكاثر بفعل قوته الذاتية وبسرعة مذهلة كتكاثر الجراثيم، ويمتد كما تمتد الطحالب على الجسد الحي وتفترسه تدريجياً.

ـ وما علاقة كل هذا بقنبلة هيروشيما، حيث لم يكن لنا يومها، وليس لنا اليوم، ونحن بعيدون ألوف الكيلومترات عن المنطقة، اية علاقة فيما يجري هناك؟!

انّ الانسان الفرد حصيلة أعماله، حركاته، محاكماته، أحكامه، اقواله ونواياه ـ حتى المضمرة منها ـ كلّها. فهي التي تكوّنه جسداً وروحاً وترتسم بالدرجة الأولى على وجهه، وتظهر في علائقه مع الناس، كما أنها تنتقل اليهم بشكل أو بآخر.

ـ اذن كل انسان يخطىء في كل دقيقة من دقائق حياته؟!

ـ ولم لا يندم ولو مرة في الاسبوع مثلاً؟ عندما اقترب رجل من يسوع وناداه: أيها المعلم الصالح. أجابه يسوع على الفور: كيف تدعوني صالحاً ولا صالح الاّ الله؟

ـ ولكن يسوعا هذا سأل اليهود عندما أحاطوا به ليقتلوه عن الذنب الذي ارتكبه؟

ـ يقصد أنّه لم يخالف أية سنة معروفة ولا أي قانون أخلاقي. لكن يسوعا هذا يحاسبه على النظرة التي غالباً ما تكون سداً بين الانسان ونفسه، كما رأينا.

وبديهي أنه كلما كان الانسان أعلى في سلم المراتب الدينية والاجتماعية، كان أثره أعمق نفوذا وأبعد مدى في الذين يقاربونه، يسمعون كلامه أو يطالعون كتاباته، وكانت مسؤوليته عن سلوكه وكلامه وكتابته أكبر. والشر كالخير ينتقل عن طريق العدوى، بحيث أن البشرية تؤلف من هذا القبيل كلاً متماسك الحلقات في الحرب والسلم، في البغضاء وفي المحبة... ويشكل هذا الجسد مناخا ملائما لنموّ الشر الذي ينتشر كما ينتشر المرض. فثمة الحسد، الأنانية، الغرور، الكبرياء التي تشكل مناخاً ملائماً للضرب، القتل وأنواع الاعتداء الأخرى على الآخر، وفي نهاية المطاف الحرب التي لا يمكن، مهما كانت محدودة زماناً ومكاناً، الاّ أن تستثير القوى العالمية وتضعها بعضها في مواجهة البعض الآخر..

ـ اذا أهل هيروشيما مسؤولون عن القنبلة هم والجماعة التي ينتسبون اليها؟

ـ بلا ريب، فقد حاربوا مع جماعتهم. وكلهم اعتدوا، قتلوا، فتكوا بالأبرياء... وأيضاً من أجل الامتداد على حساب الآخر. إنّ جريمة الذي أمر بالقاء القنبلة، والشعب الذي سانده في فعلته، تفوق عشرات المرات الجرائم الجماعية التي ارتكبت حتى اليوم. وكانوا يعرفون مسبقاً وعرفوا بعدئذ نتائج الفاجعة الراهنة واللاحقة. ومع ذلك قرروا القاء قنبلة ثانية.

ان كل من يسيء الى سمعة الآخر، يلقي عليه قنبلة أو يسهم في القائها.

ـ حتى ولو كان محقا في ما يقول أو يفعل

ـ أية سلطة شرعية طلبت منه ـ أو مني ومنك ـ أن تقول الحق؟ فليقتصر كل منا على حقيقته يقولها أمام الله ثم يكفر عن ذنبه تاركاً الآخر وشأنه.

قال: اذا سيكون حظنا هناك أسوأ مما هو عليه الآن.

ـ ألا تحمل محمل الجد قوله تعالى أنه كتب «على نفسه الرحمة» وأنه «على كل شيء قدير» وقوله «لا يكلف الله نفساً الا وسعها».

حاسب نفسك أيها الانسان، قبل أن تحاسب الغير؛ اعمل ما عليك بنية تجعلها، جهد المستطاع، خالصة لوجهه تعالى. وعليه ما تبقى.

أنضم الى الجموع المحنية الرؤوس أمام الأم القديسة، وأردد معهم: يا أمنا صلي لأجلنا. فهي بين أولياء الله، اقربهم اليه وأحبهم الى نفسه.

ان البشرية لا تؤلف جسداً واحداً في الماضي والحاضر والمستقبل وحسب، بل هنا وهناك، في الزمان والأبدية.

لازمتني صورة هيروشيما وأنا أمام الأم القديسة أردد مع الشعب الصلوات، المألوف منها والمبتكر. ولكن لا أدري كيف تبدلت اذ تساءلت: أو لم يكن بين ضحايا المجزرة الرهيبة أناس مخلصون قدم كل منهم آلامه وحياته من أجل اخوتهم؟ ان لكل قوم إلههم، ولكن الله واحد لكل الأقوام. لكل شعب شهداؤه وقديسوه، ولكن الشهادة والقداسة واحد ولكل الناس.

فسبحان الذي يخرج الخير من الشر، كما يخرج الحي من الميت...

قالوا: متى؟ أين وكيف رأينا العذراء مريم؟ لقد رأيناها، ذلكم هو اليقين الأول. وتلك كانت نقطة الابتداء في أيام العذراء الدمشقية التي تلاحقت بشكل يفوق التصور والعقل سبع سنوات متواصلة، وستتواصل الى منتهى الدهر ان شاء الله تعالى، وأخلصنا النية نحن. الا أن أحداً لا يستطيع القول: كيف، متى وأين رأيناها. كان ذلك في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٨٢، في بيت من بيوت حي الصوفانية بدمشق، صرنا نطلق عليه اسم بيت العذراء، بيت الأم القديسة. الا أن العذراء مريم ليست في مكان ولا في زمان محددين. فالذي خلقها من العدم وشرفها على العالمين، جعلها مثله فوق الزمان والمكان، فهي لكل الأزمنة والامكنة.

أجل، ليست العذراء أختي أو ابنة عمي، ليست جارتي أو صديقتي، ليست هذا أو ذاك ممن اراهم وأتحدث اليهم اعتيادياً... ليست أمي بالجسد. ومع ذلك فأنا أشعر أحياناً، أنها أقرب الي منهن كلهنّ ومنهم كلّهم. فكل مرة يدعوها قلبي، ينفتح للقائها ويستسلم لها، كما يستسلم الطفل لأمه، أشعر بأنها صارت بقربي، معي، سلامها يغمرني، يملأ عالمي، وطمأنينتها تنفذ الى أعماق كياني. قد لا يتبدل حرف واحد في وضعي، المادي والنفسي؛ نجاحاتي، آلامي، نكباتي... هي هي، وكذلك أفراحي، مشاغلي، همومي، ما أعرف وما لا أعرف... الا أنها ترقى الى مستوى يكسر شوكتها، يمتصّ سمّها، يزيل جبروتها... فأنا غير ما كنت عليه قبل حضورها. وليس هذا الشعور روحياً وحسب. فأحاسيسي وحواسي كلها تشترك فيه. أجل أحاسيسي وحواسي... وشيء آخر يعجز النطق عنه فينقله الى لغة الألفاظ. انه شعور يعيشه المرء بكل كيانه ويعيش منه وحسب... وعندما أناديها ولا تستجيب، أعرف أني ناديتها بلساني، وقلبي عند غيرها، مع الناس يساومهم على قضاء حاجاتي.

ومع الأيام عرفت أنها هي التي كانت تأتي الي، تنبهني، تعيد وتكرر بلا ملل حتى اذا التفت اليها قالت معاتبة: أنت ابني، وأنا أحبك، فعلام تهرب مني؟! وان زيارات الأم القديسة الى الصوفانية سوى هذا العتاب وقد أخذ شكلاً جماعياً مُلِحّاً.

كذا هم الأبناء، يا أمنا، يختبرون قوتهم، وأول ما يختبرونها، بالتمرد على

أبويهم. وقد يؤكد أحدهم حريته بشتم أحدهما. ان كلا منهم يريد نفسه عالماً قائماً بذاته، يكون فيه وحده الآمر المطلق والسيد المطاع. وقد يوجه الطعنة الاولى الى أمه لأنها الأقرب اليه؟

ـ ومتى أردتك، يا بني، تابعاً لمخلوق ما؟ فالذي خلقك وـ خلقني ـ من العدم، أوجدك على صورته ومثاله، حراً مستقلاً، ووهبك رصيداً بمقياس حريتك، هو العقل والمحبة. الا أن في كل انسان بعضاً من «الابن الشاطر» الذي ضربه لنا مثلاً يسوع ابني، سيدي وسيد البشر، يظن أن استقلاله في تبديد الثروة التي وفرها له أبوه، فوجد ذاته في نهاية المطاف راعياً للخنازير يتمنى لو يشبع من الخرنوب الذي تأكله.

ـ يا أمنا اغفري لنا.

ـ وحده الآب السماوي يغفر الخطايا. وها اني أراه فاتحاً يديه: تعالوا أيها المتعبون، وأنا أريحكم. انه ينادي كلاً منكم باسمه، وقد أعدّ له العجل المسمن. وما وجودي بينكم اليوم ولأيام الا واحدة من الوسائل التي يستخدمها ليعيدكم اليه. عبارة واحدة، كلمة، حركة، اشارة، نظرة جديدة الى الموجودات، علاقة طيبة مع اخوتك... وها أنت في أحضانه يضمّك الى صدره. عبثاً تحدق في الأرض لا ترى غيرها، جائعًا تبحث فيها عن القوت، عطشانا تستجدي منها الماء، عارياً تطلب منها الدفء... وتؤكد سيادتك عليها في وجه الآخر. ونسيت أنها أعطيت من الأصل لك ـ وله ـ لترقى معه منها الى السماء. الا أنك ضللت الطريق عندما تصرّفت وكأنك تعتبرها سكناً نهائياً وغاية أخيرة، والآخر ـ الذي هو في الحقيقة أخوك ـ الوسيلة الى هذه الغاية. وها هو يحذرك: يا جاهل، في هذه الليلة يطلبون روحك، والخيرات التي جمعتها لمن تكون؟

ـ الحاجة، يا أمنا، غريزة البقاء، الغيرة التي سرعان ما تنقلب حقداً وحسداً، الأنانية، الصلف البشري... فثمة الاعتداء على مال الآخر، أرضه، رزقه، شرفه، شخصه...

ـ أتقبل أنت أن يعتدي الآخر على حقك أو عليك؟ أو نسيت الحكمة الالهية والانسانية: «اصنعوا بالناس ما تريدون أن يصنع الناس بكم»؟ الآخر، الغير، يا بني، هو القريب، الأخ، يساعدك، تساعده، تتساعدان على اجتياز درب الحياة الطويلة الشاقة.

الآخر ليس شيئاً تملكه، ولا عبداً وجد لخدمتك، بل هو مثلك موجود حرّ له عالمه ولك عالمك، والعوالم الانسانية هذه تتكامل فتمجد الذي خلقها. وكلكم عيال الله.

اذكر قول يسوع: سيد القوم هو الذي يخدمهم.

وقوله أيضاً: انظروا الى زنابق الحقل. انها لا تغزل ولا تنسج، ولكن الآب السماوي كساها بأجمل وأبهج مما كسا به سليمان ذاته.

هذا الكلام وغيره تعيده الأم القديسة على مسامعنا كل مرة نمثل بين يديها ونقول:

اغفر لنا خطايانا، كما نحن نغفر لمن أخطأ الينا.

فتضيف:

تلك طريق ابني، سيدي وسيدكم، يسوع المسيح كان أول من سلكها اذ قال: «ما أتى ابن الانسان ليُخدَم بل لِيَخدُم»، وقال أيضاً: «سبعين مرة سبع مرات اغفر لأخيك.»

أجل سمعنا. ولكن كيف سمعنا؟ ويعود السؤال اياه: أين ومتى وكيف رأينا الأم القديسة وسمعناها؟ كيف يرى الانسان اللامرئي؟

قلنا: بالروح، بالايمان، بالعقل الذي هو نور الله فينا.

قالوا: كم وكم ردّدت وتردد هذه الأجوبة! انها تقنع من لهم قناعة مسبقة. أما غير المؤمن فيرددها بازدراء قائلاً: أخيلة، أساطير، خرافات، أوهام...

قلنا: وبم تؤمنون؟

قالوا: بالحقائق العلمية تؤيدها التجربة المتكررة وتثبتها بالعقل.

قلنا: ونحن أيضاً نستند الى تجربة. هذه حية تنشأ وتنمو في قلوب الناس وضمائرهم؛ أما تلك فمفتعلة يصنعونها في المخابر والأنابيب. ويكشف العقل عن ثغراتها، يشك في صحتها، فيعيدها على شكل آخر، او يبدّلها بغيرها أصحّ منها. وهي أداة تقدمه. أما تجربتنا فمتوافرة على مرّ العصور والقرون. فالانسان، منذ أن كان، ما برح يتوجه الى المطلق، يسائله عن حقيقته، الحقيقة الاولى، الكلية التي لا تتبدل. منها تنبثق الحقائق الأخرى الجزئية، ومنها الحقيقة العلمية واليها تستند.

وبها يتقدم الانسان كله لا عقله وحده، ويتحرر من العبوديات كلها، الطبيعية والانسانية: «تعرفون الحق والحق يحرركم»، هذا ما يعلّمنا اياه يسوع فادينا.

قالوا: تجربتكم أملاها الضعف البشري. ففي ساعات القلق والخوف أو الاحباط، الوهن والانهيار؛ في أيام الجوع والبؤس، الحرب والاجتياح اذ يحلق الموت فوق رؤوس الناس وينقض عليهم الواحد تلو الآخر، يشعر الانسان بفراغ داخلي خانق هو العدم أو ما يحاذيه، فيجد له موازيا في مطلق يفترضه، ولتوه يحوّل الفرضية الى واقع. وتلك واحدة من حيل الحياة الانسانية تحاول أن تدرأ بها خطر الموت الذي يتهددها.

ـ أيضاً كلام مكرور، به يقنع قائله ذاته ـ والناس ـ بصحة موقفه.

ـ عالم جزئي، مفترض، يفقر الانسان، يجعل منه جسداً فرغ من الغش والشر، من المحبة والروح، فهو هيكل عظمي. عالم محدود، فقير، فقير، فقير... يا الهي الى حدّ يدعو الى الشفقة. واني لأتساءل ما اذا كان أحد قد أخذه بحرفيته، كما يدعي أنصاره عندما يدافعون عنه!

ـ عالم العقل والعلم هو عالم النفوس القوية تحررت، حررت وتحرر الانسان من الجهل والأوهام والخوف. فالعلم كشف ويكشف باستمرار عن أسرار الطبيعة، يفجّر قواها ويضعها في خدمة الانسان.

ـ العقل الذي يصنع العلم بعد من أبعاد الانسان وليس الانسان كله. صحيح أنه مكن الانسان من السيادة على الطبيعة، وبهذا حقق ـ ويحقق ـ ارادة الله. الا أنه أيضاً فجر في الانسان غرائزه الأخس، فأضعف بذلك سلطته على جسده، كما أنه فجر، الى جانب الذرة، عالم الجراثيم الأصفر (الفيروسات) التي تفترس جسد الانسان بشكل لم نعرف له مثيلاً في العصور السابقة.

وفي عالم العلم والعقل لا مجال للموسيقى، للتصوير، للغناء... ولا لأي من أشياء الجمال، وللجمال ذاته. انه في أحسن الحالات حيادي تجاه المحبة والفداء. وقد يعتبرها خرافات مضللة، هي والروح في تطلعها الى مصدر انبثاقها الذي هو خالقها وخالق الموجودات طرا.

ان العلم للانسان، يا أخي، وليس الانسان للعلم.

ـ لقد وسع العلم فسحة الانسان العاقل حتى ليكاد يجعلها بمقياس المكان والزمان. فبفضل الانجازات العلمية مشى الانسان على سطح القمر، بنى عليه محطات، وهو الآن في طريقه الى المريخ فبقية الكواكب. كما أن التخطيط الدقيق، وتقدم حساب الاحتمالات والاحصاء والنماذج الاجرائية جعل بوسع الانسان اليوم السيطرة على المستقبل.

هذه النظرة الى الآتي، الى الأبعد، زمانا ومكانا، هي التي تفسح المجال أمام الخيال والشعر وبقية الفنون...

ـ ... وأيضاً الاسطورة والأوهام.

ـ انها رؤية الحقيقة تقوم على الثقة بالعقل والاعتقاد بانه قادر على أن يتخطى ذاته باستمرار.

ـ اذا علام رفضتم قولنا ان رؤيتنا للأم القديسة عقلية ايمانية؟ ان الخلاف بيننا وبينكم هو حول توجيه النظرة الى هنا أم الى هناك. والله تعالى يستجيب عندما يشاء لصلاة البائس، ويمكنه من أن يرى بشكل أو بآخر أحد أوليائه ويتحدث اليه. الخلاف بيننا وبينكم هو حول توجيه النظرة. فلم لا يستجيب القادر على كل شيء لصلاة البائس ويريه بشكل أو بآخر في فسحة عقلية ـ روحية أحد أوليائه... هذا ما حدث، يحدث، وسيحدث...

ـ نحن نعدّ لأولادنا مستقبلاً أفضل من حاضرنا، كما أن حاضرنا أفضل من ماضي أجدادنا. فما كان حلماً صار وسيصير واقعاً.

ـ هذا هو الانسان يتحرر من أسطورة ليجد أخرى أمامه يعتقدها واقعاً الى أن يظهر من ينبهه الى حقيقة رؤيته. ما معنى «أفضل» في قولك «أفضل من أجدادنا»؟ ما المعيار الذي نميز به الأفضل من الأسوأ؟ هل نحن مثلاً أسعد من آبائنا؟ مسألة فيها نظر. سؤال لا جواب عنه. ومع ذلك فهو جدير بالتأمل...

عندما وعى الانسان فقره تمرّد عليه، فأضاف الى فقره المادي فقراً روحياً قد يكون أوهى من السابق. كل ما في الأمر هو أن غطرسة الأقوى زادت أضعافا وصار بوسعه تدمير الآخر.

قلنا: علام تزورنا اليوم العذراء؟ علام زارت قبلنا مدناً، شعوباً، وأمماً كثيرة؟ أليس لتذكرنا، ونحن نعيش عصر الغطرسة والقوة، عصر التشريد، التهجير، التقتيل... بالطريقة التي رسمها انجيل ابنها للانسان، انجيل المحبة والفداء؟ أجل، هو الامحاء أمام القريب، الذي يمكّنه من أن يتفتح ويوجد تجربة كاملة، ويبلغ بعونه تعالى، ملء التفتح والوجود.

«تعلّموا مني فاني وديع ومتواضع القلب،» «ووضع على حقويه مئزر الخدمة، وحنى رأسه، وغسل أرجل رسله.» كان ذلك عشية أسلم نفسه لجلاديه فداء عنهم، عن رسله وتلاميذه، عن أمه وعنا. إنه الدرس الأخير والأبلغ، الذي سيبقى في ذاكرة الانسان الى منتهى الدهور.

سبع سنوات كاملة ـ ها الثامنة قد بدأت ـ والام القديسة تردد على مسامعنا، على مرأى من العالم وبأشكال عديدة، انجيلاً عاشته كله بكل جسدها وروحها، وهي تصلي صامتة، تعاني آلام القهر مع المقهورين، آلام الجوع مع الجائعين، آلام المرض مع المرضى، آلام الصلب مع المصلوبين... أجل كانت ـ وما تزال ـ تصلي من أجل الرسل، التلاميذ، من أجل الناس كلهم بدون استثناء ـ أوليسوا اخوة ابنها، وأبناءها؟ اذا ـ صلت في ذلك الزمان وهي تصلي اليوم من أجل زماننا وكل الأزمنة.

«وأنت سيخترق سيف أحشاءك» هذا ما قاله لها نبي الله، وهي تقدم ابنها الى الهيكل. وأضاف «هذا الطفل سيكون في العالم، آية التناقض، حوله يختلف الناس وهو يشطرهم شطرين: معه وضده. وهو سيقول: من ليس علي فهو معي» هذا كان في حياته وفي حيواته الاخرى، طوال عشرين قرناً والى منتهى الدهر.

انجيل المحبة والفداء هذا، به يستقيم العقل وتصير انجازات العلم وسيلة لاسعاد البشر، لا أداة لتدميرهم وتدمير أرزاقهم، كما صارت عليه هذه الانجازات عندما وضعناها على خط ارادة القوة.

قال: أنت الذي تقرأ انجيل المحبة والفداء، علام تظلمني؟ وتقول كلام السوء عني أمام الناس؟ ألم تلاحظ أن كلامك هذا هو بمثابة طعنات تسدد الى قلبي

وتجرحه. من أعطاك حق الاعتداء علي، على رزقي، مالي، شرفي؟ كيف تجيز لنفسك اغتيابي حتى ولو ضبطتني بالجرم المشهود؟ لو كنت وقتها لزمت الصمت؟ غضضت طرفك وواصلت دربك، ثم أنبتني بلطف عندما ترى الفرصة سانحة، لكنت ألقيت علي درساً لا أنساه حياتي كلها. أنسيت أنك تردد كل يوم صبحة ومساء: اغفر لنا كما نحن نغفر لمن يسيء الينا؟ ولكن ذلك هو الانسان، يؤكد ذاته على حساب الآخر، ناسياً أو متناسياً أنه قريبه فهو دوماً مسؤول عنه، لحد ما. والأم القديسة لا تفتح قلبها الا لمن يسير على الدرب الذي رسمه ابنها لذاته ولأخوته، أقله قرر أن يسير. عندها تبادره بنعم غير متوقعة، عرف ذلك أم لم يعرف.

قال أيضاً: علام تقطب حاجبيك، تغضب، تقسو علي بالكلام وقد تدينني اذا خالفت رايك في ظهورات الأم القديسة، أهي هنا، هناك أم في مكان آخر؟ متى فوضتك بالدفاع عنها؟ أو جعلت منك وكيلاً لها؟ أليس الأجدى لي ولك أن تطلب منها في صلاتك الهداية لي ولك؟ انها الأقرب الى قلب الآب السماوي تستمد من رحمته اللامتناهية نعماً وعطايا غير متوقعة تفيض بها عليك، علي وعلى العالم.

قلت: ارحمنا، يا الهي. فكم نسيء كل يوم بتصرفنا الى اخوتنا، أبنائك... وقال أيضاً: اذا كانت لك طريقك، ولي طريقي، وكل من الطريقين نقيض الآخر، وكان كل منا واثقاً من طريقه، أميناً لها، فهل تعطي لنفسك الحق بادانتي؟... علام تبدو وكأنك تريد ارغامي على اتباع طريقك؟ ان سلوكك، اذا كان حقاً مخلصاً لرسالتك، هو الذي يشهد لصدقك، لا أقوالك، وقد ينقل رسالتك الى قلبي ويرسخها فيه. أما أقوالك، وعلى الخصوص اذا أضفت اليها انفعالاتك، فغالباً ما تباعد بيني وبينك، وقد تضع بيننا فاصلاً يصعب تجاوزه. واذا كان شباب اليوم يحلّون الايديولوجيات بأنواعها محل الايمان الديني، فلأنهم يرون التفاوت الكبير حتى التناقض، بين أفعال المؤمنين وأقوالهم. وعندما ينتقل المرء من الجمهور الى الرتب العالية، يصبح التناقض فاضحاً.

قلت: أليس هذا هو السبب في تكاثر زيارات الأم القديسة الى الأرض، زيارات تكثر اعتيادياً في الأزمات، والمنعطفات التاريخية وأوقات الفوضى الفكرية. ولهذا

وجد الشعب ـ يجد وسيجد ـ ملجأ في بيت الأم القديسة. أجل، هلّل وكبّر عندما رآها فاتحة ذراعيها تحتضن العائد اليها، أياً كان انتماؤه، جنسه، وطنه، عمره. ذلك اليوم، يوم اختارت العذراء لها مسكناً في دمشق (٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٢) سيبقى خالداً في المدينة الخالدة تنظر الخلاص يأتيها في ساعة غير متوقعة.

أجل، أجل، كلنا رأيناها، هذا بعينه، ذاك بقلبه، غيره بعقله، وسمعنا صوتها عندما قرأنا رسائلها.

وحده الله قادر أن يري الانسان اللامرئي، في الزمن الذي يختاره تعالى وبالطريقة التي يرتأي... تقدس اسمه.

قلنا: مزيداً من التواضع والخدمة، مزيداً من المحبة والفداء، مزيداً من الامحاء أمام الآخر ليصير ما هو عليه من الأصل: قريباً وأخاً نجتاز معه الطريق المؤدية الى وجهه تعالى.

... وسأل أحدهم: ما الذي قالته العذراء لميرنا؟

وأضاف غيره متسائلاً: متى، أين، وكيف رأت ميرنا العذراء؟

أهي وحدها رأتها بعينيها وسمعت صوتها بأذنيها؟ أرأت وسمعت عنا ونحن صدقناها؟ أم أننا نحن أيضاً رأيناها ـ أقلّه بعضنا ـ وسمعناها، كل على طريقته.

وثالث سأل: ما العلامات التي دللت بها العذراء على وجودها بيننا ومعنا؟

وأعلن رابع متعجباً ومستفسراً: نعتقد كلنا أن يسوع الفادي عندنا فنصلي. وقد اكدت لنا ميرنا أنه أراها وجهه المقدس، أهذا ممكن؟ متى، أين وكيف رأته؟ كيف تحدث اليها وماذا قال؟

وخامس عتب: ان وجه يسوع بيننا يحدث في حياة كل منا، عندما يعيش هذا الوجود، انقلاباً لزمن ما أو مدى الحياة. فما التحولات التي طرأت على ميرنا وزوجها ووضعت حياتهما على طريق هي نقيض الطريق التي كان يسلكها كل

منهما؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت وما تزال تملأ أرض الصوفانية وسماءها، وكأنها تتحدث الينا وتتحدث اليها. كثيراً ما تصحبنا عندما نغادر بيت العذراء فتبعث الشكوك في نفوس بعضنا. ولكن من المفارقات أنها لا تنتقص ذرة واحدة من ثقتنا بالأم القديسة. وكثيراً ما تتحول هي ذاتها الى يقين عندما نعود الى بيت العذراء. قلنا: ان لبيتنا ولبيته تعالى مسافة هي الفاصل بين اللامتناهي والمتناهي. وحده تعالى يستطيع اجتيازها ليأتي الينا ويحدثنا، كل منا فرداً وشعباً، باللغة التي نتفاهم بواسطتها بعضنا مع البعض الآخر. بلى انه يخاطبنا باللون، بالاشارة، بالايماءة، بالكلام المبين والرمز المعبر. وكل مرة يتحدث يرسم لنا الطريق التي علينا أن نسلك، والمبادىء التي نبني عليها حياتنا.

هذه المسافة هي، بالنسبة للانسان فسحة الحرية، فيها يتردد، يشك، يحلل، يقارن... ثم يَقبل أو يرفض، يُقبل أو يُدبر، يثبت أو ينفي، يؤمن أو يلحد... ويؤلف ويبدع... فهو سيد موقفه، وهذه السيادة هي حيث مسؤوليته.

في هذه الفسحة يمكن للانسان أن يستسلم لارادته تعالى، فيرفعه الى مستوى الحوار معه. وان الصلاة الا بداية هذا الحوار ونهايته. فالذين علمهم، كشف لهم تقدس اسمه، عن ارادته، خروا سجداً في حضرته، عفروا التراب بجباههم وقالوا: لبيك اللهم، لتكن مشيئتك لا مشيئتنا.

والواقع أن الله يتحدث الينا باستمرار في مخلوقاته العجيبة التركيب، في وجداننا الذي يسهر على سلامة سلوكنا، ويؤنبنا اذا حدنا عن الطريق المستقيم، بواسطة المقربين اليه، ومن أحبَّ الى قلبه من الام القديسة التي أزالت من وجودها كل نزوع، كل رغبة، كل ارادة... حتى لكأنها توارت كلياً ليظهر مجد ابنها القدوس وحده... والابن ذاته أعدم ذاته على الصليب ليرى الناس مجد الآب السماوي.

الا أن الانسان يصغي لجسد يرافقه أين وأنى ذهب. وهو يلح، قد يحرمه النوم عندما يمعن في الاصغاء؛ كما أن العالم يستهويه بأشياء تداعب غرائزه، تستثير شهواته الأخس بألوانها البراقة وبأصوات تحاكي أنين الجسد. وينسى أو يتناسى أنها كلها موجودات عابرة سرعان ما يزول سحرها مخلفاً وراءه خيبة الأمل، وأحيانا

اليأس. ويستنبط «العالم» باستمرار أشياء جديدة يجعل منها سدًا منيعاً يحجب عنا نوره تعالى.

ويبدو أن «العالم» يبلغ اليوم حداً أعلى من جبروته وطغيانه بحيث لم يعد بوسع الانسان التغلب عليه بقواه الذاتية. فكان لا بد من ارسال الأم القديسة ذاتها بمحبتها اللامتناهية وتواضعها المطلق ليعود شعب الله اليه تعالى. وكانت دمشق احدى محطاتها الاساسية. لا بل انه تعالى خص مدينتنا بفيض من الآيات قلما نجد لها مثيلاً بهذه الكثرة في ظهورات العذراء الأخرى. فالى زيت الصوفانية المستمر في مناسبات عديدة، ظهر في كنائس، مستشفيات، بيوت خاصة على صور للايقونة المقدسة الأصلية الأولى. كما ظهر في حمص، الحسكة، حماة وأيضاً في عمان (الأردن)، بيت ساحور (فلسطين المحتلة)، في بيروت، زحلة، جورة البلوط (لبنان)، في العراق وفي فرنسا، ألمانيا الاتحادية، الولايات المتحدة الامريكية، كندا. ويظهر اليوم في أماكن متعددة من العالم لا علاقة لها بالصوفانية وايقونتها المقدسة. وبالاضافة الى الظهورات الخمسة الأولى، هناك الانخطافات التي بلغ عددها حتى اليوم ثلاثا وثلاثين، **وجلها مرفوق** بظهور الأم القديسة أو بظهور ابنها السماوي. وفي أغلب الظهورات والانخطافات رسائل تمليها الأم القديسة أو يمليها ابنها يسوع على ميرنا. وقد بلغ عدد الرسائل حتى **اليوم اربع عشرة** رسالة من الأم العذراء **وخمس عشرة** من السيد المسيح. وتعبر كل من هذه الرسائل على وجه من أوجه ارادة الآب القدوس. أضف الشفاءات العجائبية الكثيرة التي شهد بعجائبية بعضها أطباء متخصصون، رافق بعضهم المريض طوال مرضه قبل الشفاء، وفحصه أكثر من مرة بعد الشفاء. وشهادات هؤلاء محفوظة في وثائق الصوفانية هي والشهادات من كثيرين: كهنة وعلمانيين، شهدوا ظهور الزيت من صور الايقونة العجائبية في أماكن بعيدة عن دمشق العزيزة.

الا أن الآية الكبرى والتي هي غاية، الآيات الأخرى طريق اليها، أقصد هداية الانسان التي تتم في صمت القلب، هذه الآية تشكل في داخل الانسان فسحة لقاء بين الله تعالى الذي يبدأ وبيده المبادهة دوماً، وبين الانسان الذي قد يستجيب وقد لا يستجيب لندائه تعالى. وقد كانت أولى الآيات الكبرى في الصوفانية هداية ميرنا وزوجها نقولا.

ـ أو يضع تعالى شرطاً مسبقاً لحلوله في قلب انسان؟

لا يوجد جواب حاسم عن هذا السؤال... فالذي «يهدي الى نوره من يشاء» وحده «فاحص القلوب والكِلى».

من كان يتصور أن شاوول الذي نذر حياته لاضطهاد المسيحيين سيصبح بين عشية وضحاها بولس رسول الوثنيين، يعلّمهم انجيلاً أخذه مباشرة عن يسوع المسيح، كما يقول، ويسوع المسيح هو الذي رسم له الطريق التي عليه أن يسلكها. وليس من الضروري أن ينتمي القلب التقي الى هذا الدين أو ذاك. والذي نعرفه أيضاً بتجربتنا المباشرة هو أن هدايات الصوفانية كانت كثيرة، كثيرة جداً بدليل الاقبال المتزايد على الصلاة منذ الأيام الأولى... فبين المصلين من كان فاتراً ضعيف الايمان، وغيره طلّق الصلاة منذ زمن طويل، وثالث في قلبه شكوك كثيرة، لا يدري ما اذا كان مؤمناً أم غير مؤمن. وثمة فريق رابع كانوا ملحدين، يجاهرون بالحادهم ويدعون اليه، تابوا الى الله لما رأوا، كل منهم بأم عينه، الشفاءات العجائبية؛ بين هؤلاء طبيب آمن بعد الحاد رافق حياته كلها لما رأى الزيت ينبع أمامه من صورة صغيرة للايقونة العجائبية. أما في الأوساط الشعبية فقد تفجرت في نفوسهم ملكة الشعر، استخدموها لنظم وتلحين زجليات صارت جزءاً لا يتجزّأ من الصلوات التي تتلى مساء كل يوم أمام ايقونات العذراء مريم.

الأم القديسة تدعوك يا ميرنا

صبية في الثامنة عشرة، تلك كانت ميرنا عندما عادت من شهر العسل في ايطاليا حاملة بين أشياء كثيرة، ايقونة للعذراء مريم كان نقولا قد اشتراها سنتين قبل زواجهما، زينت بها غرفة نومها. لم تكن ميرنا يومها تختلف ـ أقله في الظاهر ـ عن عشرات الصبايا في دمشق. فعواطفها مع الجمال، حياتها للفساتين النادرة، للاشربات الفريدة تنافس بها زميلاتها. تبحث عن الموضة آخر تقليعة. وتحب السهرات. كانت على خطوات من الشهادة الثانوية عندما تزوّجت فتركت المدرسة والدراسة الى غير ما رجعة. فليس العلم اليوم غاية والشهادة طريقًا الى الثقافة. بل

كلاهما وسائل محسوبة لأهداف أخرى كثيرة. وقد تكون عند الفتاة احدى ميزاتها كالثروة والجمال...

وقد تبين، بعد أن كان ما كان من انبثاق الزيت وآيات أخر، أن الزوجة الفتية لا تعرف من الصلاة سوى أبانا والسلام واشارة الصليب، ومن الدين المسيحي سوى ما هو شائع في بيئتها من عقائد وأعراف، لا يعلم الا الله أين ينتهي الايمان وتبدأ الخرافة. ولم تكن لتشترك في الذبيحة الالهية الا لتنافس الصبايا بتفردها في الاناقة.

ولكنها كانت وديعة بوداعة فطرية تظهر في نظراتها، وفيها خفر عفوي باد في كيانها كله. وقد شهد يسوع نفسه لهدوئها ورقّة قلبها المملوء حبّاً وعطفاً (رسالة ١٩٨٧/٩/٧ المكرسة لميرنا، ورسالة ١٩٨٧/١١/٢٦). ومع ذلك يبقى السؤال مطروحاً ما اذا كانت هذه الصفات ظاهرة دوماً للعيان بحيث تجعل من قلبها فسحة لتجلي السماء فيه؟ أم أن عدوى البيئة تسرّبت الى داخلها فعطلت فطرتها وكان لا بدّ من تدخل الأم القديسة كي تعود الى الصبية طبيعتها؟ الله تعالى وحده القادر على النفاذ الى أعمق أعماق قلوبنا يستطيع الجواب عن سؤال كهذا. وهو، في كل الأحوال، يعدّ، في الوقت الذي يشاء، القلب الذي يختار ليرسل اليه أولياءه وقديسيه.

وكان نقولا أرق حاشية من زوجه في أمور الدين. وقد لا يدخل بيت الله الا في مناسبات ملزمة اجتماعيا. وبالمقابل فهو شاب ميسور نسبياً. ينافس أقرانه في ترتيب سهرات العربدة تمتد حتى الفجر، ومن أسبقهم الى النساء الجميلات. ولم يكن قصير الباع في كسب المال.

ولم تكن بيئتهما مفرطة في التقى والورع، على ما يبدو. فالقداس الالهي للأعياد الكبرى، للحفلات الاجتماعية التي لا بد منها كالعزاء والفرح، وما شاكل؛ وقد تكون عند الكبار مناسبة للقاء الأصدقاء وعند الشابات والشبان، للقاء ممكن بين أحدهم واحداهن... وها هما، ميرنا ونقولا، يشهدان ـــ متفرجين ـــ انقلاباً جذرياً مفاجئاً، في كيان كل منهما، حياته، وجوده، فرضته عليهما قوة مجهولة، لا تُرى ولا تُسمَع، خارقة للطبيعة. وها هم الناس يفدون الى البيت، بأعداد متزايدة، طوال النهار، على الخصوص قبيل الغروب، يصلون، قلوبهم خاشعة، وفي عيونهم ثقة وفرح. وهما يصليان مع الجمهور، يفتحان مسرورين

بيتهما وغرفتهما الزوجية حيث الايقونة التي ينبع منها الزيت، ليلاً نهاراً لمن يطلب زيارة العذراء العجائبية. أكانت الهاماً الهياً أم لفتة نبيهة أن منع من اليوم الأول، كل تقدمة، كل هدية،... كل تبرع من أي نوع كان؟ ومن الذي يستطيع التمييز بين الطبيعي وفوق الطبيعي في عمل، أي عمل من أعمال الانسان، أكان هذا ولياً من أولياء الله أم انساناً عادياً؟ الواقع أن الزوجين تقيّدا عفوياً ودرءاً لكلام الثرثارين بمبدأ: مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا.

على أية حال فقد كان كل ما تقدم سهل التنفيذ بالقياس الى السؤال المحرج حقاً الذي طرح عليهما منذ الأيام الأولى لظهور الزيت؛ ما ستكون عليه علاقتهما الزوجية؟ فحياتهما الزوجية في بداياتها الأولى، لا يتجاوز عمرها بالأشهر أصابع اليد الواحدة. وهنا امتنعا، أيضاً عفوياً، عن أية صلة جسدية. أويمكنهما أن يعيشا حياة كل انسان، وقد استولت الأم القديسة على بيتهما بكل موجوداته، ومنها ميرنا ونقولا. وبالفعل فقد أخذت الأم القديسة تجمع أبناءها كل مساء، تسمع شكوى كل منهم بمفرده، تمسح دموعه وتعيد اليه بهجة الوجود وفرحة الحياة.

كان الخوف قد استولى عليهما مع ظهور الزيت أول مرة، فاتصل هاتفياً بالبطريركية الارثوذوكسية، فأرسلت اليه احد أساقفتها، برفقة كاهنين. وما عساهم يقولون؟ فالأم القديسة ليست مسألة لاهوتية، أخلاقية أو فلسفية... والصلاة في بيتها ليست طقساً من الطقوس الدينية المعروفة... قد يتردد رجل الدين من أية رتبة كان، يشك، يخاف، يكثر من الفرضيات، وبعدها اما أن يولي الادبار أو يفتح كتابه ويصلي مع الجمهور وفي الجمهور.

أقول: عندما تفتح السماء أبوابها أمام البشر أجمعين، أيمكن لانسان أية كانت قداسته، رتبته الكهنوتية، موسوعية معارفه، أن يقول شيئاً؟ عندها من مسألتين مسألة: اما أن تكون له عينان رائيتان فيرى ويصلي، أذنان سامعتان فيسمع ويسجد؛ او ان يغلق عينيه، يصمّ اذنيه، يقفل ابواب قلبه ويهرب. وقد يعود او لا يعود...

فسؤال ميرنا ونقولا لا جواب عنه عند البشر حتى أجابا على طريقتهما. أويمكن لانسانين في وضعهما إلاّ ان يقطع كل منهما علاقته الجسدية بالآخر؟. ولكن قد يكون للأم القديسة جواب آخر. في وضع اقلّ إحراجاً من وضعهما، على الانسان ان يصلي وينتظر، مع ان احد الكهنة كان قد قال لميرنا: «الصبايا غير المزوجات

والراهبات بعدد وفير. فلو شاء تعالى لاختار إحداهن. واذا كان قد اختاركِ انت، فلانه في حكمته الازلية شاء تذكيرنا بقدسية سر الزواج الذي باركه يسوَع في عرس قانا».

وهما كانا يصليان وحدهما ومع الجمهور...

ويوماً طلب احد المرضى المدنفين القربان المقدس، واضاف: «أتمنى لو تأتي ماري». قالوا له: «من هي ماري هذه؟». قال: «التي تظهر لها العذراء». كان هذا الرجل مصاباً باحتشاء في القلب والرأس وبشلل نصفي. وكان فاقد الوعي بصورة كاملة، والاطباء يتوقعون وفاته بين ساعة واخرى. ورأى احد أصدقائه ان يقحم بالقوة قطنة مبللة بزيت الصوفانية في فمه. فبلعها، وبعد دقائق فتح عينيه وطلب القربان المقدس ومعه «مريم».. وقَدِمت ميرنا وبرفقتها نقولا والكاهن يحمل القربان المقدس. حال دخولهم، كان الرجل قد نهض من الفراش على قدميه ثم سجد وقبّل الأرض. فصرخ الكاهن: «احذر يا سمير!».. فاجاب دون أن يرفع رأسه: «الله موجود يا ابانا». ثم اشترك في سر القربان المقدس وطلب الا يبقى في غرفته سوى الكاهن وميرنا. وقال لهما، بعد ان خرج الجميع: «أنتِ تريدين هجر زوجك، والعذراء تطلب منك ان تستمرّي معه». فالتفتت مدهوشة وقالت للكاهن: «أنا لم اخبر احداً بما يدور من افكار في ذهني». فسكت الكاهن احتراماً لارادة الرب ولموقف ميرنا.

وعرفتُ من الكاهن نفسه ان هذا الرجل «المدنف».. زار الصوفانية بعد ذلك باسبوع واحد، وانه اشترك في اليوم نفسه في القداس الالهي وكان في مقدمة المصلين والمتناولين.. وكان الطبيب يحذره من الافراط في الحركة، ولكنه لم يكن يأبه لتحذيرات الطبيب.. سبع سنوات وثمانية اشهر مرت على هذا الشفاء العجائبي، وما يزال الرجل يمارس حياته بشكل طبيعي..

هذا الكلام زاد في إرباك الصبية وزوجها. فمن المألوف لدى الجمهور أن آيات الله لا تتجلى الا لاوليائه ممّن نذروا حياتهم لخدمته تعالى. فهم طاهرون.

ولكن من قال ان العلاقة الزوجية دنسة؟. فيسوع باركها باشتراكه هو وامه في عرس قانا. وفيها حدثت اولى معجزات حياته، اذ بارك الخمر وكثّرها بطلب من امه، كما يخبرنا انجيل القديس يوحنا.

وتجد ميرنا ذاتها، بعد ان سمعت ما سمعت، تجد ذاتها، هي ونقولا، بين قوتين كبيرتين تحاول كل منهما ان تشدهما ـ وتشد الاخرى ـ اليها، مع انهما غير متكافئتين: العذراء والراي العام الشعبي. ويعترف نقولا، في حديث الى التلفزيون الفرنسي «بأنه بقي ثلاثة أشهر يأبى أو يخشى أن ينظر الى ميرنا نظرة الزوج الى زوجته.» أجل ان «المقدس» قوة عازلة تفصل الذي يحل عليه عن بقية البشر. ومن ثم فان الزيت والصلاة المسائية المستمرين، ومعهما الظهورات التي أخذت تتوالى اعتباراً من كانون الأول ١٩٨٢، كلها كانت تذكر، يومياً، ميرنا بوجود العذراء معها، حتى لكأن الأم القديسة صارت من أبعاد حياتها ومستلزماتها. الا أن ميرنا بقيت طوال سنة ترى الأم القديسة بعيون الراي العام الشعبي المستمر منذ أجيال. وهو الذي جعل من الأم القديسة حاجزاً بين ميرنا وبين بقية البشر ومنهم زوجها. وبقول أعم فان الرأي العام هو المسؤول عن الفاصل المطلق الذي نقيمه لا شعورياً بين السماء والأرض، بين البشر وأولياء الله أو الذين لهم علاقة ما مع أولياء الله. مع أني لاحظت كما لاحظ غيري ممن زاروا الصوفانية منذ سنتها الأولى، أثناء الصلاة أو في الأوقات العادية، أن علاقة ميرنا مع الناس كانت ـ وما تزال ـ عفوية، طبيعية. فموقفها من الأجنبي غير موقفها من السوري أو العربي بشكل عام؛ واستقبالها لذويها غير استقبالها للذين تراهم للمرة الأولى، على الخصوص اذا قدومهم بدافع الفضول لا بدافع الصلاة. فقد كانت وما تزال وستبقى على ما يبدو في تصرفاتها وردود فعلها العفوية دوماً، واحدة من صبايا الطبقة المتوسطة الأميل الى الشعب العادي منها الى المتبرجزين.

وتبقى ميرنا حائرة، مترددة، تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى، على ما يبدو، تشدها عذراء الرأي العام اليها أكثر مما تقنعها العذراء ذاتها، حتى الانخطاف الثاني في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨٣ عندما قالت لها العذراء ـ الأم بالحرف الواحد:

«أنا ما جئت لأفرّق
حياتكما الزوجية ستبقى كما هي...»

وفي ٧ ايلول ١٩٨٤

«عيشي حياتك
ولكن الحياة لا تمنعك من أن تتابعي الصلاة»

ويسوع في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٧

«استمري في حياتك زوجة وأما وأختا»

وأتساءل فيما بعد، وأنا استعيد هذا الكلام المقدس، ما اذا كان يشكل هو والظهور لميرنا الصبية المتزوجة حديثاً، بداية منعطف في النظرة المسيحية الى العلاقة الجسدية الشرعية بين المراة والرجل، على الخصوص في شكلها الممعن بالتطهيرية؟. هذا الموقف ليس خاصاً بنا نحن العرب، بل هو حصيلة قرون من الامعان والتدقيق في التمييز بين المقدس وغير المقدس، بين الطاهر والنجس، موقف أعطى للنظرة التطهيرية شكلاً شمولياً ـ وربما كلياً ـ عمّمها على العالم بحيث رأى فيها بعض من علماء الاجتماع في هذا القرن التعريف العلمي الأدق للدين...

وهذا خطأ فادح. فالذي شهد عرس قانا من الجليل، هو وأمه القديسة وأتى فيه بأولى معجزات حياته بناء على طلب هذه الأم، بارك بحضوره وبأعجوبته الزواج، وبالتالي انجاب الأولاد. فكلاهما لا وجود لهما بدون العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة. ثم عندما اختار رسله لم يفضل بينهم العازب على المتزوج. لا بل ذهب الى أبعد من ذلك عندما وضع على رأس كنيسته، عند تأسيسها، انساناً متزوجاً هو القديس بطرس. وبالنتيجة فانه تعالى أسقط الفاصل بين الناس والسماء والأرض، بين المقدس وغير المقدس، بين الانسان والانسان عندما شاء أن يتجسد ابنه ويصير انساناً مثلنا، ووجه كلامه بواسطة الانبياء والمرسلين الى العالم أجمعين. ووحده تعالى يعرف كيف انه حاضر هنا وهناك.

عندما تفتح السماء ابوابها

وتشعر ميرنا مساء ١٥ كانون الأول ١٩٨٢، اثناء الصلاة الجماعية امام الايقونة ـ وكانت قد أسندت ظهرها الى الحائط ـ بِيَدٍ تدفعها بقوة، لا تدري الى اين.. فتضطرب وتزداد حركاتها عشوائية. واليد ما تزال تدفعها بقوة متزايدة. وتشرك رفيقتها بما تحسّ. فتقول لها هذه: «اسرعي الى الخارج، ربما يدعوك يسوع». فتجيب ميرنا: «ليس الوقت وقت الفكاهات..» وبعد قليل ترى ميرنا ذاتها وقد اندفعت نحو سطح البيت، حيث عفّرت الارض بجبينها طوال ما يقارب الربع

ساعة، ثم رفعت رأسها فرأت جسماً نورانياً يتوهج كأنه اللؤلؤ. فخافت والتجأت الى سلفتها النائمة في الغرفة المجاورة، وايقظتها وقالت لها: «العذراء!.. العذراء يا هيلانة!». وتظن هذه ان ميرنا قد أصابها مسّ من الجنون، فتسدد اليها صفعات على وجهها. ويحملها زوج هيلانة، عوض، وينزل بها الى الصالون. وكانت الصلاة مستمرة في الغرفة، والساعة قد قاربت الثانية عشرة الا ربعاً.

ويدخل الاب الياس زحلاوي بعد نهاية الصلاة، الى الصالون الذي كانت ميرنا مسترخية على احد ارائكه، ويرى علائم الانهاك على وجهها، فيسألها ماذا حدث يا ميرنا؟ فتجيب: «العذراء.. العذراء..» ثم تشرح له كل ما جرى. فيقول لها: «الام القديسة كانت ستقول لك شيئاً. وربما توحي اليك برسالة الينا. الا انها رأتك مضطربة فابتسمت وتوارت. ارى أن تُعدّي نفسك لرؤية اخرى بترداد الصلاة التالية:

«ايتها الام القديسة، أعدّيني لاستقبالك ولادراك ما قد توحين اليّ به».

وتكرس ميرنا بعد ذلك القسم الاعظم من وقتها للصلاة طالبة من الام القديسة ان تصفح عن ضعفها البشري.

ثم تتوالى الظهورات، كل ظهور مصحوب برسالة اولها في ١٨ كانون الاول ١٩٨٢، وآخرها في ذكرى البشارة بميلاد المسيح ٢٤ اذار ١٩٨٣. ومجموعها اربعة ظهورات (باستثناء الاول الذي تملّك فيه الخوف ميرنا فعجزت عن مواجهة العذراء) واربع رسائل. وتعلن العذراء في الظهور الاخير انتهاء مهمتها، وتعبّر عن سرورها بوجودها بين المصلين في الصوفانية.

وتحلّ الانخطافات محل الظهورات، اعتباراً من ٢٨ تشرين الاول ١٩٨٣، معظمها مصحوب برسالة، اربع عشرة منها للعذراء، آخرها في بلجيكا في ١٥ آب ١٩٩٠. وخمس عشرة ليسوع، اثنان منها في معاد (لبنان) عام ١٩٨٧ و ١٩٨٨، واثنان في لوس أنجلوس (١٤ آب ١٩٨٨ و١٨ آب ١٩٨٩) احدى عشرة في الصوفانية. فالمجموع حتى اليوم تسع وعشرون رسالة.

وستتوالى الرسائل على ما يبدو ان شاء الله.

هذه الرسائل هي في الحقيقة كلام الله. وكلامه دوماً مقدس، فوق الزمان والمكان، صالح مع ذلك لكل زمان ومكان. فعلينا أن نطلب منه لينير عقولنا

فنفهمه على ضوء مرحلتنا التي تتميز بتبدلاتها السريعة، ونسلك الطريق آلتي يدلنا عليها.

والله سبحانه حاضر كله في كل كلمة، حركة، اشارة، ايماءة... تصدر عنه تعالى. وهو كثيراً ما يوضحها ويكملها بأخرى، قد تكون احداها أو بعضها غامضة بالنسبة الينا، ولكننا نفهمها اذا وضعناها في مكانها من سلسلة كلماته حيث تبدو واضحة. وهذا ما يجعلنا نتوقع منه رسائل أخرى تتكامل مع السابقة.

ان وجود الأم القديسة في الصوفانية أبلغ من كل كلام، لكي تقول لنا منذ اللحظة لتجليها بيننا ما ستوضحه الرسائل بوضوح كامل.

هاكم رسالة الأم القديسة الى أبنائها في الصوفانية، في كل مكان وزمان:

لا تخافوا. أنا هنا بارادته تعالى لأشدّ عزائمكم. لا تخافوا. الله معكم اذا كانت قلوبكم معه لا في العالم... الصلاة هي ذكر الله، الطريق اليه، حوار معه. بالصلاة تفتح قلبك أمامه، وهو يقرأ فيه ضعفك، بؤسك، ذنبك... وتتوب اليه، وهو يحتضنك كما يحتضن الأب ابنه العائد اليه.

أضيفوا هذه الصلاة الى ما تعرفون من صلوات: «الله يخلصني، يسوع ينورني، الروح القدس حياتي.»

وتشدد الأم القديسة هي وابنها يسوع، في العديد من رسائلها على الصلاة: صلوا، صلوا، صلوا. فالله تعالى دوماً على موعد معكم في الصلاة، أين وأنى كنتم.. ويدل كل من يسوع ومريم على المكان المفضل للصلاة. فالكنيسة بيت الله، ملكوته على الأرض.

تقول الأم القديسة: «أسسوا كنيسة» وتوضح: «لا أقول ابنوا بل أسسوا». فالكنيسة تبدأ في القلب المتخشع المتواضع اذ يكون الله فيه. وتكتمل عند التأليف بين القلوب في وحدة هي الكنيسة التي أسسها يسوع وهي دوماً فيه واحدة. أجل تلك هي الكنيسة: هيكل روحي حي يكتمل بتجسيدها بناء في العالم الخارجي، فتصير بادية للعيان. الكنيسة هذه بحاجة الى اعادة تأسيس مستمرة. فالوحدة ليست معطاة مرة ولكل مرة، بل علينا أن نستحقها، ونحن نستحق الكنيسة الواحدة بأقوالنا وأعمالنا الخيرة التي هي التبشير بانجيل يسوع. تلك كانت الكنيسة عندما أسسها يسوع: فعل محبة، عطاء، تضحية... وصلاة لا تنقطع. ولهذا

كبرت، اتسعت، تعمقت ورسخت جذورها بسرعة. فاعادة تأسيسها هو اعادة واستعادة الفعل الأول هذا. ثم قسمها البشر ارضاء لميولهم وتمشياً مع مصالحهم. أما المال الذي يعطى للفقراء أو يقدم بشكل تبرعات لبناء الكنائس وتزيينها، فيأتي بالدرجة الثانية.

فالمحبة هي الفضيلة ـ الأم، منها تشتق بقية الفضائل، وتؤكد الأم القديسة على فضائل التواضع، التسامح، تحمّل المتكبرين. وتضيف: لا تعاملوا أحداً بالسوء. بادلوا الشر بالخير. أعطوا. أنجدوا المستغيث...

وتتقيد الأم القديسة وابنها قدوس الله بهذا السلوك فلا يدينان أحداً. مثلا يرددان أكثر من مرة عند كلامهما عن الكنيسة: من قسمها أخطأ، ومن فرح بتقسيمها أخطأ. والخطأ غير الخطيئة. وحده فاحص القلوب يعرف الخطايا... وحده الديان العادل.

والاجتماع لأجل الصلاة يثلج قلب الأم القديسة، انه بداية كنيسة، لا كنيسة. فتقول ليلة عيد ارتفاعها الى السماء (١٤ آب ١٩٨٥):

« كل عام وأنتم بخير. هذا هو عيدي أن أراكم مجتمعين
صلاتكم عيدي
ايمانكم عيدي
اتحاد قلوبكم عيدي»

وتقتصر على مزار صغير تطلب من المصلين أن يقيموه لها.

ويواصل يسوع في رسائل الانخطاف التي بدأت في ٢٨ تشرين الأول ١٩٨٣، شق الطريق التي باشرتها أمه يندفع بها الى أقصى حدودها. الا أن يسوع يتكلم بسلطان، كما يقول عنه سامعوه في الانجيل:

« أنا البداية والنهاية
أنا الحق والحرية والسلام
سلامي أعطيكم...»

تلك بداية عمله الالهي في رسالته الأولى في ٣١ أيار ١٩٨٤ ليلة خميس الصعود...

ويشدد يسوع في رسائله على ما سمعنا امه توحي به: التحمل، مغفرة الاساءة، التسامح، الثقة المطلقة بالله تعالى والاستسلام لارادته، قبل أن يعلنها، وهو يعلنها، وبعد اعلانها. وذلك هو جوهر الايمان. الصلاة المستمرة، التواضع الى حد الامحاء أمام الآخر لنجعل منه قريباً، وذلك واحد من معاني المحبة الاساسية. وأيضاً مبادلة الرفض بالعطاء والبغض بالتضحية. ولا ينسى السيد المسيح وحدة الكنيسة التي أسسها، فيعيد أحياناً بالحرف الواحد ما رددته أمه أكثر من مرة.

ويتوجه يسوع بالكلام الى ميرنا فيضيف الى قواعد السلوك التي ذكرت، طالباً الى ميرنا أن تنقل كلامه الى المصلين المجتمعين باسمه:

« ما أجمل هذا المكان، فيه سأنشىء ملكي وسلامي
فأعطيكم قلبي لامتلك قلبكم».

ويقول ما اعترفت الأم القديسة أنها غير مخولة بقوله:

« مغفورة لكم زلاتكم لأنكم تنظرون الي
ومن نظر الي أرسم صورتي فيه...»

ولأول مرة وآخر مرة في كلامه حتى الآن، يقول يسوع كلاماً قاسياً فيه ادانة لفئة من الناس لا لانسان بعينه.

«فالويل لمن يمثل صورتي وقد باع دمي».

ويكمل بلهجته المألوفة:

« صلوا من أجل الخطأة
فكل كلمة صلاة أسكب فيها قطرة من دمي على أحد الخطأة»

ويواصل حديثه مع أبنائه من المصلين في الصوفانية، يوم سبت النور ١٨ نيسان ١٩٨٧:

« أعطيتكم اشارة لتمجيدي
تابعوا طريقكم وأنا معكم...»

ويوم خميس الصعود ٢٨ أيار ١٩٨٧:

« أحبوا بعضكم بعضاً
وصلّوا بايمان»

ويوجّه يسوع عشية الذكرى السادسة (٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٨) رسالة توجيهية تكمل ما تقدم من رسائل وتتكامل معه:

« هل كل ما تعملونه هو حبٌ بي؟
لا تقولوا ماذا أعمل؟
لأن هذا هو عملي.
عليكم بالصوم والصلاة
لأنكم بالصلاة تواجهون حقيقتي وتجابهون كل الضربات.
صلوا من أجل الذين نسوا وعدهم لي!
لأنهم سيقولون لماذا لم أشعر بك يا رب وأنت كنت معي؟
كل ما أريده هو أن تجتمعوا كلكم فيّ
كما أنا في كل واحد منكم.»

الا أن الرسالة التوجيهية الأكمل والأشمل، وقد سبقت بأشهر رسالة الذكرى هي رسالة لوس انجيليس عشية انتقال الام العذراء الى السماء (١٩٨٨/٨/١٤). وربما أن السيد المسيح اختار مدينة أمريكية ليؤكد أن ما يقوله ليس لأبنائه في دمشق وسوريا العربية وحدها، بل لأبنائه في العالم كله. وأبناؤه هم الذين يحققون ارادة الآب السماوي، الاله الذي هو «على كل شيء قدير». ابتدأ بكلمة عتاب:

« سلامي أعطيتكم
لكن أنتم أي شيء أعطيتموني؟»

ثم يؤكد ملكيته لقلوب أبنائه:

أنتم كنيستي
وقلبكم ملك لي
الا اذا هذا القلب امتلك الهاً غيري.»

وبعدها يؤكد وحدة الكنيسة وخطأ الذي قسمها، مستخدماً العبارات ذاتها التي رددها الأم القديسة أكثر من مرة، كما سبق وقلت، ويعقب:

« فأهون علي أن يدين كافر باسمي
على الذين يدعون الايمان والمحبة.»

ويضيف معمما:

«عليكم أن تفتخروا بالله وحده.»

فثمة دعوة أخرى الى الصلاة

ويختم:

« أعطيتكم وقتي كله
أعطوني جزءاً من وقتكم.»

الا أن الرسائل الأطول والأعمق وحيث تكثر التفصيلات هي التي يوجهها السيد المسيح الى ميرنا حتى ليكاد يدخل أحيانا في جزئيات حياتها. ويفصح السيد المسيح عن ارادته الالهية عندما يعيد حرفياً عبارة أمه القديسة:

«سأربي جيلي فيك» (رسالة معاد ـ لبنان ـ تاريخ ٢٢ تموز ١٩٨٧)

فميرنا هي فرد من الناس بعينه، وفي الوقت ذاته جيل الصوفانية الذي تمثله بتواضعها، مواظبتها على الصلاة واستسلامها الكامل لارادته تعالى. هذا الجيل هو أيضاً كنيسة كما يقول عنه يسوع نفسه. وفي الانجيل اشارة الى ذلك «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا بينهم». الا أنه لا يوجد في نصوص الصوفانية أو في توالي ظواهرها الطبيعية وفوق الطبيعية، ما يدلي بأن السيد المسيح يستهدف عزل هذا الجيل عن الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية. فالصلاة ـ الام التي ترتد اليها الصلوات الأخرى هي حيث الذبيحة الالهية.

والصوفانية صارت صوفانيات. فحيثما حلت ميرنا بدعوة الى بيت من بيوت أصدقاء الصوفانية، يتجمع الناس وتبدأ الصلاة أمام نسخة من الايقونة المقدسة فيسيل الزيت. وتستمر الصلاة الجماعية، بعد سفر ميرنا، في المكان ذاته... وقد يحدث انخطاف وتوجه رسالة (معاد ـ لبنان ـ لوس انجيليس في أمريكا الشمالية) أو قد يقتصر الأمر على الزيت والصلاة الجماعية (خبب في حوران ـ عمان في الأردن). وقد يجتمع الناس حول نسخة من الايقونة المقدسة ويصلون، فثمة الزيت واستمرار الصلاة (بيت ساحور)، وثمة صوفانيات علاقتها واهية بصوفانية دمشق (اثنتان في حلب ـ واحدة في باريس).

والواقع أن أماكن الصلاة للعذراء القديسة قد أخذت تتكاثر في العالم. مما يدل على أن الجيل الذي تحدث عنه كل من العذراء وابنها يتزايد بسرعة في بقاع كثيرة من العالم.

والواقع أن الصلاة للعذراء القديسة قد أخذت تتكاثر في بقاع كثيرة من العالم. تكفي اشارة واحدة من الام ليستجيب الأبناء. مما يدل على ان رغبة كامنة في القلب الانساني كبتها عُنف العالم عندما أخذ شكل الحضارة الاستهلاكية. لكن الامعان في المتع الجسدية استدعى الرغبة اياها من أعماق النفس حيث تنتظر يومها لتعود الى الحياة نضرة كما في يومها الأول. والحياة الروحية تستمد قوتها وجاذبيتها من تواضعها وامحائها أمام القدرة الالهية. فثمة جيل من أجيال الحياة الروحية الكثيرة في التاريخ في رعاية الأم القديسة التي تشرف على تكوينه.

أأقول ان عصرنا يعبد المال أكثر مما كان يعبده في أي عصر آخر. والمال ينازع الله تعالى على تملك القلوب مع الأسف؟ وتصبح هذه العبارة مأساة اجتماعية مخيفة نتائجها، عندما يتسرب حب المال الى قلوب الرؤساء الروحيين. فلا تدري ما اذا كان عقل أحدهم عندما يصلي في الناس مع ربّه أم مع ثروته يضع الخطط لتثميرها. أينسون قوله تعالى: «لا تعبدوا ربين، الله والمال.» وأيضاً: «من شكك أحد أخوتي الصغار هؤلاء، فخير له أن يعلق حجر الرحى في عنقه ويلقى في البحر!..».

وللحياة الروحية، سحرها، جاذبيتها، عدواها. أولم نقل انها تستجيب لميل أساسي في نفس الانسان؟ والصوفانية ليست الا واحدة من مراكز الحياة الروحية الناشئة في العالم حيث الأم القديسة وابنها قدوس الله يربيان مباشرة جيلهما، اختاراه من الشعب حيث لا رئيس ولا مرؤوس. فالكاهن الذي هو ايضاً فرد من أبناء هذا الشعب، يقتصر دوره على تنظيم الصلاة في مواعيدها تاركاً للشعب عفويته ومبادهته. والنموذج الأبلغ على المنبت الشعبي للحياة الروحية اليوم، كما في أيام يسوع ورسله هو ميرنا. فقد اختارها الله تعالى وهي بعد مادة خام لحد كبير. وها هو الآن يعيد تكوينها تدريجيا. وأكثر ما يسترعي الانتباه في ميرنا هو امحاؤها الكامل أمام ارادته سبحانه، وأمام شعبه، وقد وضع ثقته كلها هو أيضاً في ارادته تعالى، فأسرع يصلي أمام الايقونة التي شاء في حكمته الأزلية أن يقدسها.

والتكوين التربوي دوماً على مراحل، هي هنا أربع، كما يتبين لي من الرسائل التي بين أيدينا حتى اليوم:

ففي مرحلة أولى ممتدة على وجه التقريب، من كانون الأول ١٩٨٢ الى تشرين الأول ١٩٨٣، وهو العام الأول للصوفانية، كانت الرسائل تتوجه الى ميرنا والمصلين لتبين لهم عبر التوبة والصلاة، أن ما يحدث هو من لدنه تعالى؛ فعليهم أن يكونوا مطمئنين.

وبين كانون الأول ١٩٨٣ وآب ١٩٨٥ (المرحلة الثانية)، صارت الرسائل تتوجه أكثر فأكثر الى ميرنا ترسم لها ـ ولنا عبرها ـ الجو العام للحياة الروحية، وتفصح عن الركائز التي تقوم عليها لتضعها تدريجياً في قلب يسوع مصدر كل حياة روحية.

المرحلة الثالثة (أيلول ١٩٨٥ ـ أواخر عام ١٩٨٧)، وفيها تمثلنا كلنا ميرنا أكثر من تمثيلها لنا في أية مرحلة أخرى، هي مرحلة الخيار الحاسم الذي علينا أن نواجهه كلنا بشكل او بآخر في كل يوم من أيام حياتنا: من مسألتين مسألة: اما مع الله واما مع العالم.

وتبدأ المرحلة الرابعة في لوس انجيليس (آب ١٩٨٨) لتمتد حتى أيامنا، وترى أثناءها الام القديسة، على ما يبدو، ويرى ابنها قدوس الله، أن يثبت أقدام ميرنا والمصلين على قمة من قمم الحياة الروحية التي يقفون عليها، وفيها تكثر اغراءات هذا العالم وخدعه. ولهذا تزداد الدعوة الى الصلاة الحاحاً وتحذير ميرنا وأبناء الأم القديسة الآخر من الاصغاء الى الاكاذيب التي يروجها الناس عنهم. وهذا ليس بالأمر الممتنع. لأن الآخر في نظر المسيحي الحق، في نظر الذي اختار الله، ليس غريباً بل هو القريب. فقد جاء في احدى آخر الرسائل من العذراء (انخطاف لوس انجيليس ١٨/٨/١٩٨٩) بالحرف الواحد:

«لا تخافي يا ابنتي. هذا كله ليتمجد اسم الله. بل افرحي لأن الله سمح لك أن تأتي الي لأقول لك: لا يهمك ما يقال عنك، بل كوني دائماً بسلام. لأن الخليقة تنظر الي من خلالك. قولي لأبنائي أن يكثروا من الصلاة لأنهم بحاجة الى الصلاة لارضاء الآب. بركة الله تحل عليك وعلى جميع الذين ساهموا معك لمحبته.»

ان ما يستدعي انتباه الانسان عندما يلقي نظرة فاحصة على رسائل المرحلة الاولى، نظرة فاحصة مستقبلية، والى جانب التوجيهات العامة التي أشرت اليها (التحمل، التواضع، الصلاة المستمرة، الثقة المطلقة بالله، العطاء...)، هو أولاً وعود العذراء القديسة:

«أعطيتكم من الزيت أكثر مما طلبتم
وسأعطيكم ما هو أقوى من الزيت بكثير.»

علام تدل العبارة الأخيرة؟ أهي الانخطافات؟ جراحات يسوع المصلوب التي ستظهر ثلاث مرات، على جسد ميرنا، في أسبوع الآلام (عندما يلتقي عيد الفصح، الشرقي والغربي في يوم واحد حتى اليوم)، أم الى ابنها قدوس الله، الذي ستتناوب ظهوراته ورسائله مع ظهوراتها ورسائلها؟ وسيكون حديثه الى ميرنا والمصلين، أكثر حسماً من حديث أمه القديسة.

«سأزور البيوت اكثر، لأن الذين يذهبون الى الكنيسة أحياناً لا يذهبون للصلاة». وتقول الأم القديسة بتعبير آخر: «أنتم لا تأتون الي، اذا أنا سآتي اليكم» ربما. أوليس وجود الأم القديسة في الصوفانية وغيرها، والزيت الذي أخذ ينسكب من عشرات صور الايقونة المقدسة المنتشرة في دمشق وغيرها من مدن المنطقة وفي أماكن أخرى من العالم، هو من جملة وسائل يستخدمها الله تعالى ليعيد الناس اليه؟ وفي اعتقادي أن الصلاة المستمرة طوال سبع سنوات ونيف هي الأكبر وقعاً في النفس من أية وسيلة أخرى. يكفي المرء أن يشترك في هذه الصلاة بكل قلبه، أو بالأحرى أن يعطي ذاته للصلاة والى الذي تتوجه اليه الصلاة حتى يتأكد من ذلك.

ويستوقف القارىء للرسائل أيضاً عبارة وحيدة وردت في سياق الحديث عن وحدة الكنائس:

« لا تتفرقوا تفرق الكبار
أنتم ستعلمون الأجيال كلمة الوحدة والمحبة والايمان.»

وواضح أن الكبار هنا ليسوا المسنين، ففي الصوفانية دوما عدد كبير منهم، بل المتقدمون في المناصب. فهؤلاء هم سبب الفرقة البارحة واليوم وغداً، كما يبدو من كلام الأم القديسة التي تستهدف، هي وابنها قدوس الله، تكوين جيل شعبي جديد، يعيد الناس تدريجياً الى الوحدة والمحبة والايمان (والثلاثة واحد).

وتختم هذه المرحلة بدعوة ميرنا الى حياة طبيعية مع زوجها.

ان للمرحلة الثانية (تشرين الثاني ١٩٨٣ ـ آب ١٩٨٥) في قراءتي لنصوصها بعدين متكاملين:

تعميق الحياة الروحية بالتشديد على بعض من أبعادها الأساسية.

اعداد ميرنا للمرحلة الثالثة حيث يضعها يسوع وجهاً لوجه أمام الخيار الصعب والحاسم كي ترى بوضوح الطريق الوعرة التي يعدها، هو وأمه القديسة، لسلوكها طوال حياتها.

الهدف الأول واضح منذ الرسالة الأولى من رسائل المرحلة الثانية (خميس الصعود ٣١ أيار ١٩٨٤) ـ وهي من رسائل يسوع الطويلة ـ وتتوجه الى ميرنا اذ يتبناها يسوع، يجعلها خاصته عندما يناديها «ابنتي»؛ كما تتوجه بواسطة ميرنا الينا كلنا. ثم يكشف يسوع عن حقيقته الالهية كما سبق وذكرته «أنا البداية والنهاية...» يلي السلام الالهي: «سلامي أعطيكم». بعدها يدعونا يسوع للتكامل في دقائق النقطتين اللتين وضعت الرسالة من أجلهما: حقيقة السلام الالهي وطبيعة الصلاة التي بها نستسلم روحاً وجسداً، لارادته تعالى.

ان السلام الالهي، وان كان يعطى لجماعة المصلين، وقد يوجه الى الناس جميعاً، فهو داخلي، ذاتي، صميمي، كل انسان يتقبله على طريقته ويعيشه في صمت القلب. فاذا تملك الانسان بكليته، عزله عن العالم الموجه اليه بحكم بنيته النفسية ـ الجسدية، حيث يكافح من أجل بقائه ومن أجل حياة دوماً أفضل. ومتى عزله كوّن في داخله فسحة صافية، شفافة فيها يحل الله تعالى محل العالم وينسيه ابتعاده عن العالم.

وهذا ما يشير اليه يسوع بقوله:

«من لا يبتغ رضى البشر ولا يخش عدم رضاهم يتمتع بالسلام الحقيقي. وهذا يكون فيّ أنا»

أو من مسألتين مسألة: إمّا الله وإمّا العالم.

والواقع أن الانسان اختار العالم سلفاً طالما ان عليه أن يعيش فيه. وتلك مهمة المؤمن: أن يباعد، جهد المستطاع، بينه وبين العالم ليعيد الله الى هذا العالم. كما فعل يسوع أثناء حياته، وبعد صعوده الى السماء بواسطة رسله، أنبيائه، قديسيه وكل من يسير على دربه. «من يثبت فيَّ أثبت فيه» كما جاء في انجيل يوحنا. والله تعالى، وان كان قد باعد بينه وبين العالم عندما عزلناه عنه بخطايانا، فهو ما يزال فيه يناديه، يشده اليه. وهذا يعني أن الانسان، وان كان أحياناً كله للعالم، فما برح يعيش بين خطين، كل منهما يشده اليه، وعليه دوماً أن يختار. والخيار متاح له طالما انه حي، حرّ. وقد يصبح الانسان وسيطاً بين الله والعالم، عندما يعيش صليب يسوع، الوسيط الأول، وبنسبة قبولنا لهذا الصليب. والحق أن يسوع هو الوسيط الوحيد، فالانسان وسيط بالوكالة؟ ولكنه يحاذي الاصالة عندما يبلغ مرتبة القداسة.

وتلك مفارقة المؤمن الحق، حددها يسوع عندما قال في انجيل القديس يوحنا لرسله: ان اختياري لكم أخرجكم من العالم. وبعد أسطر: ولكنني أعيدكم الى العالم. وبالفعل، فالمبرر لرسالتهم ـ المبرر لخلق الانسان ـ هو الوجود ـ في ـ العالم حيث الخيار الصعب والحاسم، حيث الامتحان والمحنة.

وميرنا أعادها هي أيضاً يسوع، أعادتها أمه القديسة الى زوجها، بالأحرى الى حياتها الطبيعية والسوية التي هي حياة الزوجية بكل مستلزماتها. وستكون عما قريب اما لأكثر من ولد. وهذا ما يشير اليه يسوع عندما يقول:

«عيشي حياتك هنيئة»

ثمة عبارة في الرسالة ـ اياها ـ يحار المرء في فهمها، وهي:

«ظني شرا بنفسك»

يزيد في غرابتها أن علاقتها ببقية الرسالة واهية وأنها توجه الى ميرنا بعد سنة ونصف من انسكاب الزيت والصلاة المستمرة، الظهورات والانخطافات، وان يسوعا الذي يقولها أشرك ـ وسيشرك ـ الزوجة الصبية في صلبه اذ يجعلها تعيش في جسدها جراحاته على الصليب. وتلك نعمة قلما منحها يسوع لقديسيه أنفسهم.

الا أن الذين خبروا الصلاة زمناً طويلاً يعرفون بالتجربة المتكررة أن الصلاة كلما طالت، زادت كثافة وتركيزاً، زاد العالم شراسته في محاصرة المصلي. وللعالم في هذا المجال وسائل لا تحصى. فهو يعرض على خيال المؤمن لوحة سريعة التبدل من الصور، الذكريات، الأقوال، الأحاسيس، الاغراءات... تتلون بكل الألوان. وقد يربط بينها وبين أحداث حياتنا، ما نعتقد أنه أخفق منها وما نجح... تلي الأسئلة، الظنون، الشكوك... ويزيد في قوة كل هذا أنه ينبع من مخزون ذاكرتنا القريب والبعيد. وتجربة بعض القديسين، ممن كتبوا أو نقلت عنهم الينا بعض أخبارهم، ومنهم القديسة تريزيا الطفل يسوع، هي هنا الأقوى تعبيراً والأكثر حسماً. وكثيراً ما يأخذ حصار العالم للقديس شكله الأعنف في أواخر أيام حياته فيشك في وجود الله تعالى ويحاول التمرد عليه!...

الدواء لهذا الداء هو الصلاة، المزيد من الصلاة.

وربما أن يسوعاً يشير الى شيء من هذا أو يعد ميرنا له بتنبيهها الى ما ستعاني، عندما يقول في آخر القسم الأول من الرسالة ذاتها:

«لا تحطمك الأتعاب التي باشرتها من أجلي
بل افرحي
أنا قادر على أن أكافئك
فأتعابك لن تطول، وأوجاعك لن تدوم.»

وكلمتا «تطول» و«تدوم» هما هنا الأكثر غموضاً. فحياة الانسان كلها هي «كيوم أمس الذي عبر»، كما جاء في سفر المزامير.

الخيار الحاسم

اجل، يمكن أن يمتد العذاب وأن تستمر الأوجاع العمر كله. ولكن ما العمر أطال سنة أم مائة سنة وأكثر بمقياس الابدية التي يقيس بها يسوع الأمور؟ أجل الى مستوى الحياة الابدية يطلب يسوع من ميرنا ومنا أن نرتفع. ولهذا يبدأ رسالته في يوم ذكرى انتقاله ـ هو ـ من الحياة الدنيا الى الحياة الأبدية (٣١ أيار ١٩٨٥) بالتأكيد على ألوهيته؛ كما سبق وقلت:

«أنا البداية والنهاية
أنا الحق والحرية والسلام...
سلامي أعطيكم...»

فيبشر ميرنا بالحياة الابدية، ثم يعلمها كيف تصلي. ماذا نقول عندما نصلي:

«يا يسوع الحبيب
هب لي أن أستريح فيك فوق كل شيء
فوق كل خليقة،
فوق جميع ملائكتك،
فوق كل مديح، فوق كل سرور وابتهاج،
فوق كل مجد وكرامة،
فوق جميع جيش السماء.
فإنك أنت وحدك العلي،
أنت وحدك القدير والصالح فوق كل شيء.
فلتأت الي وتفرج عني وتفكّ قيودي،
وتمنحني الحرية.
فانني بدونك لا يتم سروري.
بدونك مائدتي فارغة.»

كان يسوع قد قال لميرنا قبل أن يبدأ الصلاة هذه:

«صلي لتتمّ فيك مشيئة الله»

وها هو يختتم بعد الصلاة:

«حينئذ آتي لأقول:
ها أنذا أقبلتُ، لأنك دعوتني.»

ويؤكد يسوع حقيقته الالهية هذه في رسالة ٧ أيلول ١٩٨٥، عشية الاحتفال بذكرى ولادة سيدتنا مريم العذراء:

«أنا الخالق،
خلقتها لتخلقني.»

ومع هذه الرسالة تبدأ المرحلة الثالثة من حياة ميرنا والصوفانية، وهي الممتدة الى اليوم. في قول يسوع «خلقتها لتخلقني» مفارقة في المعايير الانسانية. ولكنها هي حقيقة الوجود الالهي مع الانسان وفي الانسان، حقيقة كل انسان يعيش في رضى الله وبركته، مسيحيا كان أم غير مسيحي. فكل انسان يعيد تكوين صورة الله تعالى في ذاته ولذاته، وفق قدرته في التحمل لمجده تعالى والعطاء في سبيله، حتى لكأن لكل انسان، لكل شعب، لكل عصر الهه. فحذار أن تعبدوا ربين: الله والمال، كما يقول يسوع.

والحق أني لا أعرف كلمة قالها يسوع لأمه، لرسله، لميرنا... أو قالها الله تعالى لأحد أوليائه، قديسيه، أنبيائه، مباشرة أم بصورة غير مباشرة، الا وتتوجه الى كل انسان على وجه الأرض، وجّه أو سيوجّه «السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول» يقول يسوع.

ويواصل يسوع كلامه عن أمه القديسة فيقول:

« افرحوا لفرح السماء
لأن ابنة الآب وأم الله وعروس الروح ولدت
ابتهجوا لابتهاج الارض لأن خلاصكم قد تحقق.»

خلاص الموجودين على وجه الارض، الذين سيوجدون والذين وجدوا.

ويبدو لي أن الحاسم في مسيرة الصوفانية هو أولاً انخطاف ميرنا عشية الذكرى الثالثة لظهور الام القديسة في الصوفانية (١٩٨٥/١١/٢٦)، ومن ثم في انخطاف عشية الخميس العظيم (١٦ نيسان ١٩٨٧). ففي الانخطاف الأول فاجأ يسوع ميرنا بحوار معها أعطاه شكل سؤال وجواب، رسم لها فيه الطريق التي سلكها ــ هو ــ الى الآب السماوي وعلى كل انسان أن يسلكها، ضمن حدود استطاعته كي يبلغ الحياة الابدية.

وفي انخطاف ١٦ نيسان ١٩٨٧ فاجأ يسوع ميرنا برسالة من نوع آخر، هي ظهور جراحاته الخمسة على الصليب في جسدها وحيث كانت في جسده المقدس، بحضور كهنة وأطباء متخصصين وجمهور كثيف من المصلين. وهي المرة الثالثة التي تعاني فيها ميرنا آلام الصلب في جسدها. وكان الشاهدان الوحيدان على فتح الجراح الابوين يوسف معلولي والياس زحلاوي وكلاهما غالباً ما سجّلا الرسائل.

سأل يسوع:

« ابنتي،
أتريدين أن تكوني ممجدة أم مصلوبة»

ولم تفهم السؤال هذا ولا السؤال التالي. فتجيب:

ـ ممجدة

ويبتسم يسوع ويقول:

«ممجدة من الخلق أم من الخالق»

الجواب:

ـ من الخالق.

ويضيف يسوع:

« وهذا يكون بالصلب
لأنك كلما نظرت الى الخلائق ابتعد عنك نظر الخالق»

في المرتين السؤال يستدعي الجواب وكلاهما واضح، اذا وضعناهما في المناخ الروحي الذي ساد ويسود الصوفانية، وعلى الخصوص الانخطافات. ومع ذلك فيسوع يصر على أن يسمع الجواب من فم ميرنا. فالصبية أمام خيار حاسم. فالعالم لم يرم سلاحه ولن يرميه أبدا. وقد يبدو كثيراً ما يعود على الغالب في صورة ذكريات وأخيلة من الشباب الاول. فثمة النزهات الطويلة، المباراة في الأناقة، السهرات مع الرفيقات والرفاق حتى ساعة متأخرة من الليل. ثمة اللقاءات العاطفية. ولم لا؟ فقد كان كل ذلك بريئا. فمن حق الصبية أن تفتتن بشاب وتفتنه، طالما أنها في سن الزواج، والزواج مشروع جدا؛ لا بل هو عندنا، الهدف الأول والأخير لكل فتاة. وتلك هي الحياة الدنيا، مباهجها، عطرها، اغراءاتها... شهواتها المشروعة، سرعان ما تصير غير مشروعة. ومن الذي يستطيع اقامة الحد، في ميدان كهذا بين المشروع وغير المشروع؟ كم وكم من الناس تراجعوا مقهورين بعد أن قطعوا شوطاً لا يستهان به على طريق الحياة الروحية! والانسان بعد حر. بوسعه في كل دقيقة أن يبدل طريقه. أوليس سيد نفسه ومصيره؟ وبوسعه مبدئياً في الساعات الأخيرة من حياته أن يعيد النظر في سلوكه. رهيب هو العالم. فالمال الذي وضعه

يسوع مقابل الله تعالى في قوله: «لا تعبدوا ربين» رمز من رموز هذا العالم الكثيرة. انه أعتاها، أكثرها قدرة على تملك الانسان طالما انه يفتح له، مبدئياً، أبواب العالم السحري هنا كلها. ولكنه ليس الوحيد الذي سيلعب هذا الدور. فالصراع الحقيقي هو بين الله والعالم. يزيد في اهميته أن مسرحه هي النفس الانسانية، وأنا، نحن البشر، مرتبطون عضوياً، صميمياً بالعالم وصراعاته، طالما أنا في حياة الدنيا.

قلت: السؤال والجواب متكاملان وواضحان. فعلام لم تفهم ميرنا أياً منهما؟ أما تزال بعد ثلاث سنوات من الصلاة المستمرة ليلاً نهاراً من الحياة قرب الام القديسة تصغي الى حديثها وحديث ابنها قدوس الله، التحدث الى كهنة والى مصلين، وبين هؤلاء من هم أكبر منها سناً وأكثر خبرة بالامور الدينية وبالحياة الروحية... ما تزال على درجة من السذاجة والجهل يمنعانها من فهم الامور البديهية؟ لا أظن. فعند ميرنا من الحس السليم الطبيعي، من سلامة الطوية ومن البراءة الفطرية، وهي على درب الحياة الروحية، ما يمكنها من ادراك الامور لا بالمحاكمة العقلية، بل بالحدس والشعور العام العفويين. لقد انطوت بالنسبة اليها مرحلة ما قبل الصوفانية. وحل محلها، حل محل علم العالم، علم الام القديسة التي اختارتها وثبتتها، وهي الآن تعدها لمستقبل تحبه وتخشاه. انها ما تزال في بداية الطريق. واني لأتساءل: من منا يستطيع الادعاء بأنه تجاوز بداية البدايات على طريق الحياة الروحية؟!

الآن علينا أن ننتبه، نحن الذين لا نرى من حضور قدوس الله سوى علاماته الخارجية، ومن وجود الام القديسة بيننا سوى اشارات عابرة، الى أن وجود يسوع المفاجىء أمام الانسان، حتى ولو كان للمرة الواحدة بعد الألف، ليس بالأمر السهل. ففي أسرع من طرفة عين يتملكك، يحبس عليك أنفاسك فتنسى اباك وأمك، أخاك وأختك... تنسى ذاتك حتى لكأنك فقدت العقل والخيال والذاكرة. كان الاقدمون يعتقدون أن الذي يرى الله يصعق لتوّه. وهم على حق في اعتقادهم. والقديسون يعلنون، كل على طريقته وفي لغته، أن الحضور الالهي نزع كلاً منهم من ذاته. العجيب أن ميرنا احتفظت ببقية باقية من القدرة على مخاطبة الناس، بحيث سألت وسمعت وأجابت ولو ببغائياً.

يحضرني الآن سؤال آخر: هل صارت ميرنا، بعد ملازمتها - الطويلة نسبيًا - للنصوص الروحية بالصلاة والتأمل والقراءة، قادرة على فهم الرسائل السماوية التي كانت وما تزال تنقلها الينا فور صدورها، بواسطة الكهنة المتواجدين قربها يصلون؟ ورب سؤال يستدعي آخر: ماذا عنا، نحن أدعياء الثقافة، في مواجهة هذه النصوص التي ندعي شرحها، تفسيرها والقاء الضوء عليها؟ أنحن أحسن حالا من ميرنا في فهمها؟ وهل البشرية، بعد عشرين قرنا من النقاشات اللاهوتية المعمقة، الهادئة أو الصاخبة، من البحوث التي تطبق آخر وأدق طرق البحث العلمي، بعد التأملات والتمرينات الروحية الطويلة، بعد الصوم والصلاة، أحسن أو أعمق فهمًا للنصوص المقدسة التي ألهمها الله - أو أوحى بها - لأنبيائه ورسله، قديسيه وأوليائه، من الذين سبقونا في الماضي القريب أو البعيد؟

ويحضرني في الحال قول المسيح: «أشكرك، يا أبي، اله السماوات والأرض لأنك أخفيت حكمتك عن الحكماء والفهماء وأظهرتها للاطفال، أبنائك هؤلاء الصغار».

وعندما تنطق السماء يخرس الانسان، يسجد، يقبل الأرض ويصرخ مع العشار:

يا الله اغفر لي أنا عبدك الخاطىء

يا الله ارحمني أنا عبدك الخاطىء

وينتظر ارادة الله، فوحده يقيم الحد بين الخطأ والصواب، بين النفاق والحقيقة.

كان يسوع يعرف بدون شك أن قبول ميرنا الصليب طريقًا الى تمجيد اسمه تعالى ليس حاسمًا، حتى ولو كررته مرارا عن سابق تصور وتصميم. فالانسان، وان كان حرا بحرية كاملة وملتزما بوعده أمام الله والناس، فهو، في الوقت ذاته، مرتبط بظرف قد يقهره ويجبره على أن يعمل ما لا يريد. فعلام اذا واصل رسالته، رسالة الصليب والمجد؟

ليضع ميرنا، ويضع كلا منا أمام الحقيقة الالهية الاسمى التي هو مسؤول أمامها وعنها، فردا وجماعة.

ليرسم لنا، في جزئياتها، الطريق الى الله، في حدها الادنى والأعلى.

«أريدك يا ابنتي، أن تجتهدي بالصلاة وتحتقري نفسك. فمن احتقر نفسه زاد

قوة ورفعة أمام الله.

أنا صُلِبت حبا بكم

وأريد أن تحملوا وتتحملوا صليبكم من أجلي، بطوع ومحبة وصبر ،وتنتظروا قدومي.

فمن شاركني بالعذاب، أشاركه بالمجد،

ولا خلاص للنفس الا بالصليب.

لا تخافي، يا ابنتي، سأعطيك من جراحاتي، ما تفين به ديون الخطأة.

فهذا هو الينبوع الذي ترتوي منه كل نفس.

واذا طال غيابي واحتجب النور عنك، فلا تخافي، انما هذا لتمجيدي.

اذهبي الى الارض التي عم الفساد فيها وكوني في سلام الله»

كلام رهيب.

خلاصته: ان العالم هذا درب آلام لكل البشر، أفراد وجماعات. فكل انسان يحمل صليبه مختارا راضيا، اكراما للذي كان أول من جعل من الصليب طريق الخلاص للجنس البشري وشركة مع آلامه، هو قريب الى الله يمجده. أما الذي يحمل الصليب عوضا عن كثيرين وفداء عنهم، فهو على طريق القداسة. ومع القديسين، مع أولياء الله، تسقط كل الحدود بين الله والانسان. وذلكم هو الوجود المسيحي، الوجود - في - المسيح، أو احتقار الانسان لذاته: أنت لست لذاتك بل للقريب، لخدمته، وقد يستدعيك في كل لحظة لاسعافه في المرض، في الفقر النفسي والجسدي وفي كل ضائقة أخرى.

— أهي المسيحية مخالفة لكل أعراف البشر الذين اصطلحوا على اعطاء الأسبقية للمصلحة الذاتية على مصلحة الآخر؟

— بمعنى ما نعم. ففي المسيحية لا توجد (مصلحة) بل (خدمة)، لا يوجد (آخر) بل (قريب)، لا يوجد (ذاتي) بل (تضحية) تضعك محل القريب. والقريب الذي تخدمه هو ،بالنسبة اليك، صورة المسيح على الارض.

— حياة صعبة، مستحيلة!

— أيضا مرة: بمعنى ما نعم. الا أن هناك بالمقابل قدرة الله، والا فما معنى

قوله تعالى عن نفسه: «ان الله على كل شيء قدير»؟ عندما يقول يسوع لميرنا: «لا تخافي، يا ابنتي، سأعطيك من جراحاتي» فهو يكرر بألفاظ أخرى ما قاله للقديس بولس: «نعمتي تكفيك، قوتي في الضعف تظهر»، وعندما يتابع حديثه مع ميرنا فيضيف: «لا تخافي، يا ابنتي، ان طال غيابي واحتجب النور...» فانما ليمتحن صبرها ـ وصبرنا ـ قدرتها على المثابرة في طريق الصليب، وقدرة كل انسان على مواصلة الخدمة...

الرسالة الصامتة

تلك كانت رسالة انخطاف عشية الجمعة العظيمة، يوم الخميس ١٦ نيسان ١٩٨٧. فجراحات يسوع مسيح الله على الصليب (الجبهة، اليدان، القدمان، الخاصرة) التي ظهرت على جسد ميرنا بوضوح، هي التي كانت تتحدث الى المصلين، وقد تجمعوا بخشوع، نساء ورجالا، صغارا وكبارا، كهنة وأطباء متخصصين حول ميرنا، حتى ضاقت بهم الغرفة، ثم البهو الخارجي، وكانوا ينشدون أمام ايقونة الأم القديسة:

اليوم علق على خشبة،
الذي علق الأرض على المياه...
نسجد لآلامك أيها المسيح...

أجل، هي الجراح التي تتحدث الينا. ماذا كانت تقول؟ ماذا قرأنا، نحن الذين توافدنا من هنا وهناك لنرى، كل منا بأم عينه، مسيح الله مصلوبا بيننا ومن أجلنا، نحن الخطأة. تربّى بيننا نحن البشر، عاش معنا، أكل وشرب، والينا وجّه بشراه الطيبة.

والكلمة صار جسدا وسكن بيننا.

ونحن الخطأة رفعناه على الصليب. وهو قدم ذاته طواعية واختيارا للآب السماوي فداء عن خطايانا. ونحن نردد كل يوم مرارا: «اغفر لنا خطايانا». ولكن هل نغفر لغيرنا خطاياه؟ ذلك هو السؤال الذي على كلنا أن يطرحه على ذاته، كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة أمام الله.

قلت وأنا أشق طريقي بين الجموع الى داخل الغرفة: هنا بدأت مسيرة سيدة الصوفانية من دمشق والى العالم. ففي هذه الغرفة ظهر الزيت لأول مرة على الايقونة المقدسة يوم ٢٧ تشرين الثاني عام ١٩٨٢. وهنا تبلغ اليوم واحدة من قممها الأعلى.

غرفة نوم عادية لعريسين، كما يمليها الذوق المحلي البدائي. محوراها الاساسان: السرير الزوجي العريض والمرآة. السرير من قشر الجوز الغالي الثمن، لون بني محروق. المرآة مثلثة الألواح، ذات قاعدة من خشب السرير، مستطيلة بحيث تتسع لكل أدوات الزينة التي تستخدمها العروسة من مساحيق متعددة، روائح عطرية، بودرة.... على هذه القاعدة وضعت الايقونة التي قدستها العذراء مريم اذ تركت فيها بعضا من روحها الطاهرة. وكانت بالاصل مرشوقة بين أدوات تزيينية أخرى، وضعها العروسان حيث وجدا لها مكانا في الغرفة. لا أدري ما اذا كان في الغرفة سجادة أم لا. انما رأيت بجانب الحائط مقعدا للجلوس، فوقفت عليه مع اثنين أو ثلاثة سبقاني اليه لنرى بوضوح الجراحات المقدسة.

الا أن الايقونة نفت كل ما عداها عندما ظهرت عليها حبات الزيت. وهذه أخذت تتكاثر عددا مع تكاثر ظهورها على الايقونة بحيث استقطبت الحي فالجماهير من دمشق وغيرها. وتغادر الأيقونة المقدسة الغرفة في رحلة قصيرة ترويها لنا مذكرات الأب الياس زحلاوي هذه، الى أن استقرت أخيرا في العش المطل على الشارع حيث أرادت لها الأم القديسة أن تكون. ولكن، حتى الآن، عندما تدخل الى الغرفة، وأنت تعرف أن الايقونة ليست فيها ،توجه عفويا نظرك الى حيث كانت، ثم تجيل ناظريك في الغرفة وكأنك تبحث عن شيء ما، علامة خلفتها الأم القديسة وراءها. ولست، في اعتقادي، بالمخطىء، فمبارك المكان الذي يمرّ فيه الرب الاله هو أو أحد مختاريه.

وهذه الغرفة هي موطىء قدمي القديسة الأول عندنا في دمشق. وهي، وان كانت قد اتسعت منذ خميس الصعود، أيار ١٩٨٤ لمن لا يسعه مكان، ومنها يبلّغ رسائله الى المؤمنين، فستبقى مكرسة للأم القديسة، منها تبارك دمشق، سوريا والعالم الى الابد.

قلت مرة أخرى مع صاحب الزبور: «ما أعجب أعمالك، يا الهي، كلها بحكمة

صنعت». ما الازمنة كلها عندك؟ أليست كيوم أمس الذي عبر؟ والأمكنة؟ بمقدورك أن تعيدها في لحظة الى العدم الذي منه أوجدتها. عبثا نقيس أعمالك بمعاييرنا. عبثا نطلق على مآثرك أحكاما سرعان ما تظهر لنا خطلها .فما نراه صغيرا قد يكون في نظرك كبيرا، وعالما قد تؤثر عليه انسانا عاديا ننعته بالجهل. ومسكنك ليس في الزمان والمكان، أيا كان شأنهما، وانما هو قلب الانسان، وعند القلب المتخشع المتواضع تحط رحالك. فبداية رحلة قدوسك الى العالم كانت في قرية مجهولة من جملة المدن والقرى التي تغص بها امبراطورية القيصر. ورعاة بيت لحم كانوا أول من بشرتهم بميلاده وأرسلتهم للقائه. فسجدوا وسبحوا. القصور العجيبة ببنائها ورياشها وتحفها الغنية صارت نسيا منسيا. وبقيت مغارة الرعاة في بيت لحم، رمزا من رموز انعتاق الانسان من الخطيئة وخلاصه. لأنك جعلت منها سماء ومن مزودها عرشا سماويا كما نقول في صلوات الميلاد.

وها هي الأم القديسة تقدس في هذه الأيام غرفة زوجين كانا لسنوات قليلة خلت مغمورين، فاذا بهما يصبحان بين عشية وضحاها محط أنظار عدد من الناس كبير وهو يتزايد باستمرار، وكان بيتهما العتيق ضائعا بين عشرات البيوت في حي دمشقي قديم، فصار – ويصير أكثر فأكثر - قبلة الناس من أطراف العالم الأربعة.

كان الزوجان الشابان حتى ذلك اليوم بين أيام السنة (يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٢) سعيدين أحدهما بالآخر، على ما يبدو. كانا، على الأرجح يخططان للمستقبل السعيد، كما يتصوره أهلهما وأبناء حيهما. الزوج تاجر بارع، وفي خياله مشروعات كثيرة كلها رابحة. فلم لا يجمعان ثروة تمكنهما من القيام برحلات أبعد من بلغاريا وأوقع في النفس، تعود منها الزوجة بأجمل الفساتين ومعاطف الفراء؟ ويهدمان البيت القديم ويحولانه الى قصر لأولادهما... ولم لا؟ فالثروات كانت تجمع في سنوات معدودة على أصابع اليد الواحدة؟ لم لا وطموحهما هذا مشروع أمام الله والناس؟

فماذا صنعت بهما يا الهي؟ بددت الأحلام وأعدت التصورات الى العدم الذي خرجت منه! هل فرقت بينهما أنت الذي قلت: جئت لأفرق الأم عن ابنتها والأخ عن أخته...؟ ولكنك لم تقل: افرق الزوجة عن زوجها. هل زدت اتحادهما؟ هل باعدت؟ هل قربت؟ لا هذا ولا ذاك. هذه الأسئلة وغيرها كلام بشري، من التراب

خرج وفي التراب يبقى، العالم يغذيه، ومع العالم تبدده الرياح. انها أسئلة، عقله وروحه استمداها من تراب هذا العالم، وهو لا يرى أبعد من أنفه في أحسن الحالات. والعالم يعمي قلوبنا فلا نرى السماء المفتوحة دوما تنادينا.

ما الثروات؟ ما المناصب؟ ما القصور والرياش الفاخرة؟
ما العلوم والآداب والفلسفات؟ ما الألقاب والأوسمة وكل ما يفخر به الانسان؟ كلها جعلت لخدمة الانسان والانسان جعل منها أصناما يعبدها.
فان «هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان».

هنا تصح كلمة الجامعة:

باطل الأباطيل!
كل شيء باطل وقبض الريح!

بين عشية وضحاها تتبدد. ويبقى التراب الذي منه جبل صاحبها الانسان. وهذا الى التراب تعيده بعد أن تفترسه الديدان، «من التراب والى التراب تعود.»
وأنت وحدك باق. أمامك قلب الانسان تسأله: هذه الوزنات التي أعطيتك اياها، ماذا صنعت بها؟ لقد نسي قول قدوسك:

أنا الحياة. من يؤمن بي فسيحيا وان مات.

هذان الزوجان كانا يعدان نفسهما لمصير وأنت تعدهما، وبيتهما الصغير لآخر على الأرض ذاتها وفي العالم اياه. فمعهما بدأت وتتواصل للصوفانية، للمصلين فيها، لدمشق وعبادك الصالحين فيها، ولكل من في هذا العالم، يسمع نداء الأم القديسة اليوم وبعده وبعده... أجل بدأت معهما وفي بيتهما تاريخا جديدا هو واحد من رحلاتك التي لا تنتهي، المتعددة الطرقات، الى هذا العالم ومن أجل هذا العالم. طرقات من لامتناهي علمك تنبثق واليه تنتهي.

اسجدوا يا اخوتي وأنشدوا
قدوس! قدوس! قدوس الرب اله الصباؤوت
السماء والارض مملوءتان من مجدك

ففي هذه الايام التي نجتازها غير عابئين، تبدأ عندنا، معنا، ومن أجلنا، درب من دروب الخلاص.

قولوا، يا اخوتي:

يا الهي، ارحم ضعفي. فقلب الانسان من تراب الارض، أفكاره من وحي هذا التراب، وفي هذا التراب تنمو وتكبر وتتلاشى العلالي والقصور التي نضع أملنا فيها. بين عشية وضحاها تتبخر ومعهما أحلامنا الى أن نلحق بها نحن بدورنا. وأنت وحدك الحي الباقي.

اسمح لي، يا الهي، وقد بدأت، أن أسائل أيضا عن الدوافع التي جعلتني أهرع يوم خميس الاسرار وعشية الجمعة العظيمة - ١٦ نيسان ١٩٨٧ - الى بيت الأم القديسة في الصوفانية،وأن أدفع الناس كي أجد لي مكانا بينهم؟ الفرجة؟ الفضول؟ حب المعرفة؟ عدوى البشر الذين يتسابقون في مثل هذا النهار الى بيت الأم؟ الرغبة أن أرى بعيني ما سمعت بأذني؟ أم صوت نداء من الداخل سحبني من طاولتي ودفعني الى حيث تتجلى قدرتك؟ من الصعب - وربما من الممتنع - علي ان أجيب. وحدك تعرف قلب الانسان. وحدك تحصي كل خلجة من خلجاته. وحدك بمقدورك أن تطهر هذا القلب من الطفيليات التي علقت به، صارت من مكوناته، وهي التي تحجب صوتك عنه.

يخيل الي الآن أني لم أسمع من المصلين الا هذا النشيد:

اليوم علق على خشبة...

وحده هذا النشيد يليق بالذكرى العظيمة!

كانت ميرنا ممددة على سريرها، وعيناها مغمضتان وقد استرخت عضلات وجهها، فبدا شاحبا. وكانت صلتها بالعالم المحيط بها قد انقطعت. وحدهما الأبوان معلولي وزحلاوي أدركا رهبة الموقف، فجثوا على ركبتيهما يصليان وينتظران. لقد تجمع جسد الصبية كله حول الجراح، على ما بدا لي، حتى اذا ما مس قدميها أو يديها أحد، انتفض جسدها بحركة انعكاسية من شدة الألم. فلم يتمكن الأطباء من اجراء فحوصهم السريرية الأساسية كجسّ النبض وما شاكل. أما نحن الفضوليين فكان كل منا يدفع الآخرين كي يقف في المكان الذي يمكنه من مشاهدة ميرنا بالشكل الأكمل. وكنا ننشر بعددنا الكبير جوا خانقا ألفناه فنسيناه. مساكين نحن، فقراء روحا وجسدا! أجل فقراء، فقراء، فقراء وما الذي نستطيع أن

نراه. فالذي أحدث الجراح «لا يراه الا الابن الذي نزل من السماء. هذا أخبر عنه». وحده استولى على ميرنا ليكشف لها عن معنى الألم، معنى الفداء... عن حقيقة الانسان كما يريدها له سبحانه أن تكون.

وتتوالى أسئلتي التي لم تنقطع: يا الهي! ماذا كنت أتوقع أن أرى وأسمع، وأنا في الطريق أو عندما صرت في الغرفة ـ اياها ـ بين الجموع، في ذلك اليوم المقدس بين أيام السنة؟ ما العواطف، ما المشاعر، ما الصور، ما الأفكار التي كانت تتوالى على مسرح نفسي وخيالي؟ ربما كل شيء ولا شيء. غريب أن يجهل الانسان ما يتم في داخله، ووحده يعرفه، يجب أن يعرفه هو والذي «يعلم السر وما يخفى». ولكن الجاهل، الغبي أو الدعي، هو الذي يزعم أنه يعرف ذاته. ان علم الجسد تقدم ويتقدم متسارعا في الكشف عن موضوعه الذي ما يزال مع ذلك مجهولا بجملته. أما علم النفس العلمي جدا وعلم نفس الأعماق كلاهما ـ ورغم ادعاء الثاني للكشف عن أعماق النفس ـ بقيا على السطح السطح من النفس، البارحة واليوم وغدا.

هل خاب ظني أم العكس، عندما عدت في أواسط السهرة الى بيتي؟ لم أشك لحظة واحدة في ظهورات الأم القديسة عندما نقلها اليّ، مبشرا ومتهللا الأب الياس زحلاوي بعيد الشهر الأول من ظهور الزيت على الايقونة المقدسة. كنت أجهل المكان وأهله. وأذكر أني قلت له: «وقت الله يشتغل، بيعرف كيف يشتغل». قلت له بعد أن زرت الصوفانية أكثر من مرة، وصليت مع المصلين وتعرفت الى أهل البيت وشكرت الله على نعمته: ان الدليل الذي لا يدحض على صحة الظهورات هو استمرار الصلاة بهذه الكثافة كل يوم. واليوم كما بالأمس القريب، البعيد، أردّدالحجة ذاتها عندما أسأل عن الصوفانية. والصلاة، الجماعية منها على الخصوص، من الهامه تعالى. وأضفت يومها، على ما أذكر: كل الظواهر تشير الى أن نفس الصوفانية طويل، طويل جدا، يا أبانا... والله سبحانه، عندما يبدأ عمله يواصله حتى النهاية. نحن المقصرون. وصدقت زوجي عندما قالت لي انها رأت الزيت، وكنت على بعد خطوات من الايقونة، فتقدمت ورأيت بدوري وشكرت الله. ورأيت يوما أثناء الصلاة بعد الظهر، الزيت ينسكب بغزارة من وجه ميرنا ويقع على الأرض، وكانت على بعد خطوتين مني تنشد مع

المنشدين. كما رأيت الزيت على باب غرفتها عندما أدخلوها اليها، وهي في حالة شبيهة بالاغماء، ويهرع المصلون لالتقاط الزيت بقطع من القطن، بركة أو لدهن جسد مريض أو لتوزيعه على من يطلبه. وذلك هو المألوف في حالات كهذه. كما تيقنت من أن جراحات السيد المسيح ظهرت على جسد ميرنا أول مرّة (١٩٨٣/١١/٢٥) لمجرد أن نقل اليّ الخبر - البشرى الأب الياس زحلاوي. وعلام اذا كنت، رغم هذا الايمان الراسخ، أتوقع، مع كثيرين، على ما بدا لي، أن يفاجئنا تعالى اسمه باشارة - آية غير متوقعة؟ الآنّ الايمان، مهما كان كبيرا، يترك مجالا للشك والاستفهام؟ أم لأن ظهور الرب دوما مفاجىء؟ ومتى حدثت مفاجأة تتبعها مفاجآت؟ أو لأنّ الانسان يطلب دوما المزيد من رحمته تعالى! هنا كل الأسئلة والاجوبة جائزة. الأمر الذي لا شك فيه عندي هو أن الله حاضر دوما بيننا. الذي يمنعنا من رؤيته والتعرف اليه هو أمور هذا العالم التي تستأثر بكل اهتمامنا، وتقيم بذلك حاجزا كثيفا يحجبه عنا. الا أن الله، سبحانه، يخترق من وقت لوقت هذه الحواجز، وكأنه يفجرها من الداخل ليتجلى لنا. وهذا ما حصل في ذلك الخميس العظيم. المؤسف بالنسبة لي، هو أني لم أستوعب في الحال معنى جراحات قدوسه البادية للعيان بشكل واضح جدا في جسد ميرنا. لقد كانت تفوق بمراحل قدرتي على القراءة. واني لأتساءل اليوم، وبعد مرور أكثر من سنتين ونصف على ذلك اليوم المقدس ،وصور وقائعه ما تزال ماثلة في خيالي وذاكرتي، ما اذا كنت أحسن قدرة على الفهم. وأقصد بالفهم أن أعيش آلام السيد المسيح، لا كما عاشتها ميرنا، ومن ضمن حدود اشتراكي المحدودة جدا: هذه المعايشة هي بدون شك هبة - نعمة - من لدنه. انما على الطالب أن يقوم بشيء ما، أهو رغبة؟ ارادة؟ الحاح؟ صلاة؟ انقطاع الى خدمة القريب؟ لا أدري.

اني لأتساءل - وما أكثر أسئلتي التي أتذرع بها لأغطي أمام نفسي، عجزي عن تجاوز السطح مما ارى — أتساءل: ما الذي فعلت، وأنا وجها لوجه أمام الاشارة - الآية التي منّ بها علي الله يومها؟ كنت أعمل ما بوسعي كي أقف في المكان الذي يسمح لي بأن أرى على شكل أوضح جراح الصليب في جسد ميرنا، كما سبق وقلت. وأخيرا وقفت. فهل معرفتي كانت أكمل ذرة واحدة مما كانت عليه عندما وطئت قدماي الغرفة، ورأيت ميرنا ممددة على سريرها وجراح الآلام بادية على جسدها؟ أبدا. ألوم نفسي على عجزي هذا؟ لا أدري.

ـ أكنت وقتها، لاهياً بشؤون أخرى، كأن أفكر بكتاباتي أو بعملي في الوزارة؟ أبداً، أقله على مستوى الشعور. ومن ثمّ فان آياته تعالى خافية علينا في معناها وفي حقيقتها، حتى عندما نراها بأعيننا ونلمسها بأيدينا. وهو سبحانه لا يكشف ذاته الا متى شاء وكيف شاء. والمختارون قلة قليلة جداً من الناس، وعلى الغالب في أوقات متباعدة. اعداد النفس بالصوم والصلاة ضروري من حيث المبدأ، ولكنه ليس بكاف. فالذين رأوا السيد المسيح قدوس الله بينهم طوال ثلاث سنوات ونيف، بمعنى ما عاشوا برفقته، سمعوا كلامه، شاهدوا آياته العديدة، تتبعوا سلوكه، يوماً اثر يوم، عدد كبير جداً من الناس، الأكثرية الساحقة من سكان الضفة الغربية. فما هي نسبة الذين آمنوا به أثناء حياته؟ قلة قليلة من الناس هم الذين رأوا قيامته. والباقون؟ هذا كان يحرص على تجارته ويخشى الفريسيين ورؤساء الكهنة؛ ذاك يسترضي السلطات الرومانية كي تبقيه في وظيفته... ونحن كذلك لا نعرف الآية الا بعد زوالها. الهامّ هو أن نتعرف اليها على حين، أو قبل فوات الأوان.

ـ قد يقول بعض الشطّر: تلك كانت وما زالت أمور طبيعية، أسبابها خافية علينا وسوف يكشف العلم يوماً عنها.

وقد يقول آخر من أدعياء العلم: السبب معروف! ويحدثك عن تفاعلات كيميائية. وقد يمعن في الحديث عن الذرات والجواهر الفريدة... قلت: تفضل، يا سيدي واجر هذه التفاعلات!

ربما كان ذلك صحيحاً. ولم لا؟ ولكن الذي وضع نظام الطبيعة قلما يخالفه. ولم لا يتجلّى بواسطته؟ يبدو لي أن كل هؤلاء الذين لا يمتون الى العلم الا بسماع ما قيل عنه، أكثر ادعاء بكثير من العالم. فهذا يقول بكل تواضع: النتائج التي أسجل هي التي تأكدت منها حتى الآن. وكم وكم من القوانين العلمية التي أثبتتها التجارب المتكررة، أثبتت بعد ذلك خطأ تجارب متكررة أخرى. ومن الذي يستطيع الادعاء بأنه يعرف قوانينِ الطبيعة كلها! فكلما تقدم العلم خطوة ـ وهو يتقدم اليوم بسرعة مذهلة ـ صح لدى العلماء بأن ما يعرفونه حتى اليوم، هو الجزء الأخير الأخر من نظام العالم.

ولو لم تكن الامور على هذا الشكل، لما كان الايمان فعلاً حراً بكل ما في كلمة «حرية» من معنى، حتى لأكاد أقول ان هامش الحرية الذي يتركه لنا مطلق. وهذا واحد من معاني الآية الكريمة «ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بانفسهم».

الذين يربكونني الى ابعد حد من الارباك هم اللاهوتيون. فهؤلاء يعتقدون ان بوسعهم وحدهم بين البشر ـ وضمن الحدود المعطاة للبشر ـ اقامة الحد بين الحلال والحرام، بين البراءة والخطيئة.. بين الرحمن والشيطان، ويستخدمون لذلك الحدود التي وضعوها، كل منهم، لنفسه. انهم اكثر ادعاء من الدهريين والطبيعيين. اذ ان هؤلاء يتحركون في الفسحة التي يتحرك ضمنها البشر اجمعون. اما اولئك فيتحركون في الفسحة الالهية. ومع ذلك فالاسباب المعلنة لكل الانشقاقات الدينية كانت، وفي كل الاديان، دوماً لاهوتية، شكلاً على الاقل.

ـ والآن، فلنترك، يا أخي، كل هذه الأمور على ابواب الصوفانية، ولنعد الى الغرفة التي غادرناها حيث تنتظر الام القديسة، عرفتَ ذلك ام لم تعرفه... واذا كنت ما تزال مشككا او مترددا، فصلِّ. والله لا يهمل الفعل المخلص اياً كان.

قلت وانا في الغرفة:

ـ أهي فرجة؟. مناظر طريفة من الممكن ان تصوّر، ان تؤخذ عنها لقطات سينمائية كي يسلّط هنا الفيديو اضواءه الساطعة مرة على وجوهنا، ومرات على ميرنا وسريرها..

ـ ولكن أليس من حق الناس في دمشق والعالم الذين، لسبب او لآخر، لم يتمكنوا من الوصول الى هذا المكان المقدس، ان يروا بعض ما نرى؟.

ـ وماذا نرى نحن الآن اكثر مما سيرون هم؟. سيكون بينهم على الأرجح من هم اشد ايماناً مني. هؤلاء سيعيشون بعضاً من آلام المسيح التي تعيشها الآن ميرنا.

وكان بين الحضور كاهن بكامل لباسه الكهنوتي واقفاً فوق رأس ميرنا لجهة

يدها اليمنى بين الحائط والاب معلولي، في وقفته الحيادية الكثير من التحدي، ويتوجه اليه احد الحاضرين على فجأة سائلاً:

ـ ما رأيك يا ابانا؟.

ـ انا شاهد. يجيب الآب دون ما تردد.

ـ كلنا في الغرفة هنا شاهد، يا ابانا، قلت في نفسي. الفرق بيننا وبينك، يا ابانا، هو اننا نحن ننتظر رحمته تعالى لنا ولهذه الصبية المعذبة. اما أنت فيبدو من كلامك اعتقادك ان رحمته تعالى قد ابتعدت عن المكان كله.

والآب المحترم هو ايضاً قد ابتعد بعد ذلك بقليل. اذ لم اجده عندما عاد ناظري الى المكان الذي كان فيه. الاب يوسف معلولي كان ما يزال هناك جاثياً على ركبتيه يصلي وقد اختفى القسم الأعظم من جسده بين الناس الذين يحاصرونه ويحاصرون ميرنا... والعذراء وابنها القدوس. يطلبون، يطلبون. لا أعلم ولا يعلمون ماذا نطلب.

«هذا الطفل سيكون آية تناقض» يشطر الناس شطرين. فقل لي، يا أبانا، أأنت متأكد من أنك وحدك على الصراط المستقيم، وهذا الجمع الذي يصلي كله في ضلال؟ وكيف يتحول الضلال الى صلاة؟ واذا كنا في ضلال أفليس من واجبك أن تبقى معنا وتصلي معنا كي يهدينا الله ويهديك؟ والانسان، كما تعلمنا، يا أبانا، ضعيف، بحاجة الى رحمته وهدايته، كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة من دقائق حياته.

... كنت أين وأنى وجهت ناظري أرى الآب الياس زحلاوي. هو هنا، هناك، في كل مكان. يصلي، يطلب، ينظم ويدعو الناس الى الالتفاف حول الأم القديسة، انساناً واحدا. لقد قتل في أعماق نفسه بذور الطائفية، وجذور كل تفرقة من أي نوع كانت. أولسنا كلنا أبناء أب واحد، واخوة أخ واحد؟ هو على الغالب، مع الآب معلولي، أول المصلين في الصوفانية، ويبقى فيها حتى ساعة متأخرة من الليل، طالما أن هناك انسانا واحدا يصلي معه. في عينيه، عندما يدخل الصوفانية، دهشة فرح قد يصل حدّ الغبطة. ولم لا؟ ألم يكن من أوائل الذين سمعوا نداء الأم القديسة ولبوه؟ حتى لكأنه يقول: اسمعوا، انها تدعونا كلنا، كلا منا باسمه. في

وجهه تصميم على أن يعيد ما أمكن من الناس الى الأم القديسة. وشعاره، فيما يبدو لي، أن يعود الجميع الى الحظيرة.

وكان في الغرفة طفلة، ألبسوها ثوبا أبيض وغطوا جسدها بوشاح أبيض نقي كقلبها، ووضعوا سريرها قرب الجدار على يسار أمها، فغفت فيه وهي تبتسم للملائكة الذين أتوا ليتحدثوا اليها. والملائكة أقاموا بينها وبين عالمنا الخاطىء ستارا من نور قطع كل صلة بينها وبيننا. فهي كأنها لا تشعر بوجودنا. لا أدري كم من الوقت بقيت على هذا الشكل، ثلاث، أربع، خمس ساعات (ربما أكثر). وطالما كنت في الغرفة لم يسمع لها أحد حركة ولا صوتًا، ولا بدّلت وضعها. انها حريصة على أن تبقى مع الملائكة. كما أن أمها كانت حريصة على أن تبقى مع المصلوب. الهي! احفظها، احفظها. فأنت حجبت حكمتك عن الحكماء والعلماء لتظهرها للأطفال!

والأطباء؟ ماذا عن الأطباء؟ أربعة كانوا، ثم صاروا ستة على ما لاحظت. لا أعرف واحدا بينهم غير مؤمن. كلهم وقوف في الصف الأول. بعضهم في مواجهة ميرنا والبعض الآخر على يسارها. وكانوا يحاولون ـ ودوما يتحققون ـ الحصول على الحد الأدنى من المعلومات عن وضع وظائف جسد ميرنا الاساسية: قياس النبض، عدّ دقات القلب، والتأكد من درجة انتظامها. والتنفس أهو طبيعي؟ الأهم فحص الجراح الستة، أقله طول كل جرح، عرضه، عمقه، نوعه. ولم يكن في نظر ميرنا الخارجي ولا في حركاتها ما يجيب لا سلباً ولا ايجاباً على أسئلتهم... انها صبية طبيعية ممددة على سريرها في حالة تحازي الاغفاء، لولا أن في وضع رأسها وفي توجّه حواسها ما يوحي بأنها بعيدة عن كلنا، وعن عالمنا، لا يعيدها اليه الا الألم الذي تشعر به عندما يمس أحدهم أحد أطرافها. ويدخل طبيب وطبيبة في هيئتهما، أو على الأقل في هيئة الطبيبة ما يوحي بأنها ليست من هذا البلد، ويقفان بين الأطباء على الجانب الأيسر من سرير ميرنا. وتنحني الطبيبة وتمس برفق يد ميرنا، تصغي الى قلبها، تكشف عن جرح الخاصرة، تفحصه، تقيسه (١٢ سم)... فلا تبدي الصبية حراكاً. كانت لدقائق معدودة قد دخلت في اغماءة كاملة انتزعتها من عالمنا... وتشير الطبيبة بما يوحي أن وضع الجسد ووظائفه والجراح طبيعي جداً، ثم تركع ويركع الطبيب ويستغرقان في صلاة طويلة.

اربع مرات ارتسمت فيها جراح المصلوب على جسد ميرنا. وكل مرة يتوقف الكلام وينطق الصمت. وتبدو الجراح لندرتها وكأنها الاستثناء في مسيرة مقدسة تقوم على ثلاثة أركان: أولا، الزيت الذي لم يكن ينقطع الا ليعود وتتعدد مواقع انبثاقه. ومن ثم الصلاة المستمرة. وثالثا، رسائل العذراء ويسوع التي تتكامل وتتعمق. وكل منها اشارة ــ آية من لدن الذي يمنّ بها علينا، ربّ السماوات والأرضين. أو هي العجائب الاستثنائية جداً. فكل ما يتم في بيت العذراء بالصوفانية هبة مجانية تفوق الطبيعة، يرسلها ربّ الناس الى كل الناس. أوليس هو الذي يشرق بشمسه على الأخيار والأشرار؟ دوما ينتظر عودة الابن الشاطر، يناديه بآياته كي يعود فيحتضنه ويذبح له العجل المسمن.

الشفاءات المفاجئة، هي الاستثنائية حقا. وقد أثبتتها الفحوص المخبرية وشهادات الأطباء المتخصصين، ولولاها لما صدق المكابرون حدوثها، كما في لورد وأماكن أخرى مقدسة. وما أكثر الأماكن المقدسة، ما أكثر آياته تعالى في عالم واسع ــ يضيق؛ جعلت كلها لتقدسه، وهو يرفضها في كل منا كي لا نراها فنؤمن.

وظهورات العذراء ويسوع ــ قد نقول ــ الرؤى والجراح؟ انها هي أيضاً رسائل، علينا أن نقرأها، هي والرسائل الكلامية، كل منا، حاضراً ومستقبلاً من موقعه في المجتمع والعالم.

ان اختيار الأم القديسة دمشق مسكناً لها، وظهوراتها المتكررة فيها، لتدلّ، ان دلّت، على أن الله يقدسها اليوم، كما قدسها في الماضي باقامة أنبيائه وهداية احد أعظم رسله، بولس، فيها. وفي اعتقادي أن الجراح هي التي تكشف بالنتيجة معنى الصوفانية. فنحن أبناء المنطقة، أية كانت طوائفنا، طبقاتنا أو انتماءاتنا الاجتماعية، مدعوون للفداء في وطن قام ماضياً على الفداء. فما بالك بعصر، خلاص الانسان فيه، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فعل فداء؟! وكل خدمة تقدمها للقريب، مجاناً لوجهه تعالى فعل فداء. فما رأيك في الانسان الذي يقدم نفسه فداء عن الذين يحبهم؟

كان الظهور الأول لجراح يسوع المصلوب (الكفان، القدمان والخاصرة) على جسد ميرنا الساعة (٤,٣٠) الرابعة والنصف من بعد ظهر الجمعة ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٣، قبل يومين من الذكرى السنوية الأولى لظهور الزيت أول مرة على الأيقونة المقدسة. واستمرت الجراح مفتوحة حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً حين التأمت تماماً: وأول من كان حاضراً هو الأب يوسف معلولي الذي كان وما يزال ملازماً للبيت بعد الظهر مع المصلين، وحتى انصرافهم في ساعة متأخرة من الليل، منذ بعيد الاسبوع الثاني لظهور الزيت حتى اليوم بعد الذكرى السابعة، ولعمر طويل ان شاء الله. فهو والأب الياس زحلاوي الشاهدان الأكثر أمانة واخلاصاً لبيت الأم القديسة، لآياته وعجائبه سبحانه. واستدعوا على الفور اساقفة وكهنة وأطباء. فكان بعض من حضر أسقفاً شرقياً مع ثلاث من كهنته.

وبقي الأسقف ساعة يشاهد الجراح، أثناءها حضر كهنة كثيرون من مختلف الطوائف. وقالت ميرنا للاسقف عندما افاقت من انخطافها: العدرا بتريدكم هيك: تقصد مجتمعين من كل الطوائف. وأقول مرة أخرى مشدداً على أن المصلين وبقية زوار الصوفانية كانوا منذ اللحظة الاولى، حتى اليوم والى ما شاء الله، يحققون أمنية الأم القديسة حتى لكأنهم كلهم أبناء دين واحد وطائفة واحدة. واذا كان البشر قد أدموا قلب يسوع وطعنوا مهجة الأم القديسة بانقساماتهم الى شيع وطوائف، فكلنا سواسية أمامه تعالى، لا يميّز انساناً على آخر الا بالصلاة والتقوى، كما قال عمر بن الخطاب... وكان من الطبيعي أن يحتشد الناس في الغرفة ـ اياها ـ وفي الباحة، يصلون ويشكرون الله على نعمه. وحضر من الأطباء الذين استدعوهم على اعتبار أن أمر الصوفانية يعنيهم؛ حضر سبعة منهم، كلهم متخصص. وقد تمكنوا من اجراء الفحوص اللازمة وفحص الجراح وقياس كل منها طولاً وعرضاً وعمقاً لأن جسد ميرنا كان كالحجر لا يمكنك أن تحرك أياً من أطرافه. والجسد هذا، كما قالوا، سليم معافى. ولما استعادت ميرنا وعيها الكامل كانت منهكة. الا أنها في اليوم التالي كانت قد استعادت حيويتها الطبيعية.

المرة الثانية لظهور جراحات الصليب على جسد ميرنا، كانت بعد أقل من سنة من المرة الاولى، يوم خميس الأسرار من أسبوع الآلام (١٩ نيسان ١٩٨٤). وعيد

الفصح يقع تلك السنة في يوم واحد عند الشرقيين والغربيين. فكأنه سبحانه يؤكد بهذه الاشارة ـ الآية، التمني الذي أبدته الأم القديسة، المرة السابقة، كما شددت عليه وستشدد هي وابنها يسوع في أكثر من رسالة، ومنها رسالة الذكرى السابعة (٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩) أقصد العمل العاجل على توحيد القلوب وهو الذي يسبق توحيد المؤسسات ويرسخه. ولقد هرع الناس والكهنة والأطباء لشكر الله على نعمه في بيت الأم بالصوفانية. وجراح المصلوب على جسد الانسان، وان كانت مألوفة لحد ما في تاريخ الناس (القديس فرنسيس الاسيزي، القديسة ريتا وغيرهما) فهي، في ندرتها، من العلامات الاوضح على وجود الله. الناس ينتظرون دوماً واحدة من هذه العلامات لتوكيد ايمانهم وترسيخه. واستمرت الجراح من الساعة (٣,٣٠) الثالثة والنصف بعد الظهر حتى العاشرة ليلاً... واستمرت الصلاة الى بعد هذه الساعة. ويلاحظ الطبيب الذي فحص الجراح أن طول جرح الخاصرة (١٠) عشر سنتيمترات فيقول: بحاجة الى تقطيب كي يلتئم. فيجيبه نقولا على الفور: الذي فتح الجرح قادر على تسكيره.

وفي مثل هذه المواسم يصير بيت الأم القديسة صوتاً واحداً يرتفع الى السماء طليقاً كالنور الذي يضيء المكان:

المجد لله في العلى
وعلى الأرض السلام

وفي اليوم التالي ـ الجمعة العظيمة ـ دخلت ميرنا في انخطاف دام ساعة ونصف الساعة. وكانت ترى طوال الوقت جبلاً مُضيئاً ينصبّ عليه النور من علُ.

للمرة الثالثة تحدث جراحات المصلوب لتقول ما قالت وما ستقول عندما ظهرت للمرة الأولى على جسد انسان أو ستظهر، ما قاله يسوع عندما كان يطوف شوارع مدن وقرى فلسطين، ما يقوله المصلوب عندما ننحني أمامه أو عندما نرسم على صدرنا اشارة الصليب، ما تقوله الكلمات المسجلة في بشارة يسوع، في رسائل الرسل وكتاباتهم وكتابات القديسين الأخرى، وفي كل الرموز المسيحية. يسوع لم يكتب كتاباً، أقصد لم يضع تشريعاً، بل ترك لنا الحرية في وضع القوانين والنظم التي تتناسب مع كل ملابسة تاريخية ـ اجتماعية نحن فيها. قال

يسوع، في كل ما قال، شيئاً واحداً، سمّه وصيّة اذا شئت، ولا تنس أن كلمة «وصية» غير مطابقة تماماً للواقع. ما قاله يسوع وردده بكل الصيغ الممكنة، بمعنى ما بكل الألسن واللغات ـ بالمثل، بالاعجوبة، بالصور والمجازات، بسلوكه ـ ليس دستور حياة، بل حياة، اما أن يحياها الانسان، جزئياً أو كلياً أو لا يحياها. قاله وعاشه بكل تصرفاته. قال:

«أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. وأي حب أعظم من أن يعطي الانسان ذاته فداء عن الذين يحبهم».

... وكان الفداء.

وهذا ما كانت تقوله الجراح البادية بوضوح على جسد ميرنا، يوم خميس الاسرار من اسبوع الآلام في ١٦ نيسان ١٩٨٧.

فالذي يصمم على أن يكون مسيحياً عليه أن يعيش في جسده ونفسه، من موقعه وحسب قدرته، سرّ الفداء. وكل عمل، صغيراً كان أم كبيراً، تقدمة، خدمة مجانية للقريب، وبالتالي شركة مع صليب يسوع، سيان عرف ذلك الانسان الذي يقوم به أم لم يعرفه.

أجل هذا ما كانت تقوله، صامتة، الجراح،ترده بلا ملل. ونحن الذين كنا شهودا على القول ـ الحياة، كنا نصلي، نتزاحم، نتدافع، نتأفف من ضيق النفس. نتصور، نتخيل... ولكن هل كنا نصغي حقاً الى القول ـ الحياة؟ على كل منا أن يسأل نفسه اليوم، غداً، بعده... ويعترف بقصوره لله العلي العظيم ويطلب المغفرة. تلك كانت هبة من لدنه تعالى، أن تكون تلك الساعة، في كل مكان قدسته الأم القديسة ورفعه المصلوب الى مستوى سر الفداء. وكم وكم من آياته تعالى أظهرها لنا، ونحن لاهون عنه وعنها بما نسميه مصالحنا والذي هو في الحقيقة أنانيتنا المحدودة.

كان أول ما ظهر جرح الجبين، عندما تدفق الدم منه غزيراً. ثم توالت، الواحد بعد الآخر، الجراح الأخرى الخمسة التي تظهر اعتيادياً في مثل هذه الحالة. وكان جرح الخاصرة، عندما كشفت عنه الطبيبة الأجنبية لتفحصه وتقيسه، الأعمق والأطول. والأرجح أن طوله كان أكثر من اثني عشر سنتيمترا (١٢). وعندما أنهت

الطبيبة عملها غطّت الجرح وركعت وصلّت هي والطبيب المرافق لها، كما سبق وقلت.

كانت ميرنا، أثناء الاغماءة وقبلها وبعدها، منذ بداية الانخطاف حتى نهايته، ممددة على سريرها، قلما تحرك راسها أو أحد أطرافها. ألأنها تخشى أن تزيد الحركة ألماً بالأصل شديداً واحياناً لا يطاق، أم لأنها كانت كلها، جسداً وروحاً مع الرؤى التي تعيشها، كما في أي انخطاف آخر؟ أم لأنها استسلمت منذ زمن للربّ فهي تسير حتى النهاية في الطريق التي يرسمها لها؟ للأسباب الثلاثة، وربما لعوامل أخرى هي وحدها تعرفها.

لا أدري علام قفزت بسرعة الى خيالي واحتلت شعوري كله، وأنا أستعرض وقائع تلك الساعات الرهيبة، وميرنا في نقطة المحور منها، عبارة يوحنا السابق المعروف بالمعمدان، قالها في اليوم التالي لتعميده يسوع في نهر الأردنّ. يروي انجيل يوحنا الرسول في بداياته، أن يوحنا السابق رأى يسوع الناصري (ويخيل الي أنه يوم ربيعي من أيام بداية رسالة يسوع) قادماً من بعيد، فهتف:

« هذا هو حمل الله»

وتضيف اليها الكنيسة بعدئذ:

«حامل خطايا العالم»

وتجعل منها احدى الصلوات الأساسية من صلواتها.

الآنّ يوحنا السابق رأى يسوعا الناصري ماشياً الى الصلب كالحمل الذي يساق ليذبح على المحرقة؟ أم لأنه كان لوداعة يسوع الفائقة وهو القائل:

«تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب»

ما يوحي بصورة الحمل؟

* * *

هذه الصورة الآخاذة في ايجازها، بساطتها، عفويتها، والتي تبارى المصورون والموسيقيون والشعراء، ويتبارون دوماً في أدائها، كل منهم بلغته... ويقصرون دوماً عنها، هي التي تحتل شعوري، وأنا أرى الصبية بين يدي الله تعالى، وكأنها تردد مع العذراء:

«ها أنذا أمة للربّ، فليكن لي بحسب قولك»

ما من شك أن في ميرنا، كما عرفتها وأعرفها في الصوفانية، كالفتاة العربية على العموم، خفراً وحياء طبيعيين، الظهورات والرؤى والرسائل والانخطافات جعلتها جزءاً لا يتجزأ من كيانها. لم أعرفها عندما كانت في بيت أمها وأبيها... الا أني رأيتها منذ سنتين ونيف عند بوابة السهرة، أواخر تشرين الثاني في باحة بطريركية الروم الكاثوليك. وكنا خارجين من قداس احتفالي، سيم فيه شماس انجيلي كاهناً، وقد تجمعنا جمهور كبير في الباحة بانتظار الكاهن لتهنئته. كانت ممسكة بذراع رفيقتها ورأسها يكاد يتكىء على كتف تلك الرفيقة، وفي نظراتها وتعبير وجهها بعض الغنج والدلال، شأنها شأن أية صبية عربية تتنزه مع كثيرات، وفي الشارع عدد من الشباب. ولما رأتني قالت: الا تزور الصوفانية في عيدها هذا العام؟ وكنا على قاب قوسين من الذكرى الخامسة لظهور الزيت المقدس. ولم تنتظر جوابي الذي كان ايجابياً، بل واصلت نزهتها، ثم اختفت فلم ألقها في القبو عند تناول الغذاء مع عدد كبير من المدعوين. قلت وأنا أفكر فيها: وما الحرج. ألم يقل يسوع مشدداً بعد أمه القديسة: عيشي حياتك بصورة طبيعية. أليس من حقها أن تتأنق، وهي زوجة شابة، وتظهر من وقت لآخر بين الناس؟ للصلاة وقت، ولمخالطة البشر وقت، للتأمل وقت، وللنزهة وقت، كما جاء في سفر الجامعة؟ ثم أضفت، دوماً بيني وبين نفسي، وأنا أتذكر عبارة يسوع «ليس الذي يقول لي يا رب، يا رب، هو الذي يدخل ملكوت السماء، بل الذي يعمل مشيئة أبي السماوي». لقد مضى عهد التزمت والعزلة والنسك الموروث من العصر الوسيط، والذي كان لا يخلو أحياناً من الرياء، في ذلك الزمان، كما في زماننا. وابن الانسان كان يشترك في الولائم، يأكل ويشرب الخمرة. وكان أيضاً يحب الروائح الطيبة، ويفخر بها. أولم يقل للفريسيين: أيتها القبور المكلسة؟ فعلام لا تسير ميرنا ونسير كلنا على هوى الذي نعلن أنه معلمنا وفادينا؟ كانت ميرنا عند أهلها، على ما يبدو، صبية مدللة تحب، كأية صبية أخرى في سنها، الفساتين الأنيقة

والتبرج والنزهات الليلية مع رفيقاتها في الشوارع التي يندفع اليها الشباب في ذلك الوقت. ويوماً وضعت الأم القديسة يدها عليها. قالت لها: «أنت لي». وصارت لها. صارت تصلي وحدها أو هي وزوجها حتى ساعة متأخرة من الليل وربما حتى الفجر أحياناً، حتى لكأنها نذرت نفسها للرب هي وزوجها. وتبخرت المشروعات التي كانا يضعانها لمستقبلهما. صارت ارادة الأم القديسة وابنها مستقبلهما... والذي كان وما يزال يسيل ـ بالأحرى ويتدفق أحياناً ـ من يديها ووجهها لحد ما باستمرار، كما يسيل من الايقونة المقدسة وايقونات أخرى هنا وهناك تقدسها الأم القديسة، على الخصوص أمام الغرباء الذين يأتون من بعيد لرؤية آيات الله في خلقه وتمجيده تعالى، أليست هي دعوة صامتة الى المزيد من الصلاة والتأمل؟ ويخطو بها يسوع خطوة أخرى على هذه الطريق، اذ يصلبها مرتين قبل أن يضعها أمام الخيار الحاسم «أتريدين أن تكوني مصلوبة أم ممجدة»، ويوحي اليها بالجواب ثم يقول بلهجة التأكيد «الصلب درب التمجيد»، ويصلبها مرة رابعة بعد هذا الكلام الرهيب. ومن يدري فقد يصلبها مرة وربما مرات! هذه الدرب رسمها لها قبل أن تخلق. فستكرس حياتها للصلاة ولاظهار عجائب الأم القديسة وابنها على الملأ.

والحق أن يسوعاً لم يأت هنا بجديد. ولكنه ينبهنا مرة بعد مرات الى الدرب التي رسمها لرسله عندما كان يعيش معهم، في قوله: «من اراد أن يتبعني فليحمل صليبه ويمشِ معي». فعلى كل مسيحي، كي يكون جديراً بهذا الاسم، أن يعمل كل ما بوسعه كي يجتازها حسب ظرفه، حتى النهاية... وليس هذا بالأمر العسير، كما قد يظن المرء للوهلة الأولى. فلكل انسان في كل يوم، أتعابه.

ففي يوم الخميس ١٢ نيسان ١٩٩٠، الساعة الحادية عشرة صباحاً، كانت ميرنا تصلي مع المصلين وتشعر ـ وهو شعور قد رافقها طوال اليومين السابقين ـ بآلام في رأسها وضيق نفس يزدادان يوماً إثر يوم. وقد بلغا يوم الخميس من اسبوع الآلام، حداً يكاد لا يحتمل. وعلى فجأة، تدفق الدم من جبينها. وتبيّن بعد ذلك، عندما ارغموها على ان تتمدد على سريرها، ان الدماء التي كانت ما تزال تنسكب، مصدرها خمسة جراح في الجبين ذاته. لم تفقد ميرنا وعيها، مما زاد في ألمها وتعبها الى حد الارهاق. ويمتد الالم فيشمل كتفيها ويأخذ شكل الجَلْد، شركة مع جَلْدِ الجنود ليسوع. وفي مرحلة ثانية، قرابة الساعة الثالثة عشرة، تفجّر الدم من

اربعة جراح في اليدين والقدمين، وتبدأ المرحلة الثالثة بعد دقائق، اذ يتفجر الدم من الخاصرة، وكان الجرح ما كان عليه في المرة السابقة اي بعرض ١٢ سم. وجرت الامور وكأن الجرح الاخير أراحها. فغفت ما يقارب النصف ساعة. وكان المصلّون يزدادون عدداً وهم يتناوبون الدخول الى الغرفة للتبرك بيدي وقدمي التي اكرمها يسوع فاشركها في آلامه وصلبه. وتبدو لي الغرفة، عندما دخلت إليها، أصغر مما كانت عليه، فقد اضيف اليها سرير عريض في الزاوية الشمالية لطفليها. كانوا قد اخذوا الصغير يوحنا كي لا يرى والدته وهي تقاسي مرّ العذاب. اما ميريم فأصرّت على ان تبقى بجانب امها وكأنها تشاركها منذ الآن، وهي بعد في الرابعة، آلامها. وهي تتساءل علامَ يعذب يسوع ماما.. أيريد الا احبه بعد الآن؟. وحوالي الساعة الرابعة والنصف، نهضت ميرنا من سريرها وافسحت طريقاً لها بين المصلين وتوجهت رأساً الى الأم القديسة حيث شاركت في الصلاة وانشدت بصوتها الخافت الحنون والمريح:

«كل ما يصيبني هدية منك يا الله»

وفي مرحلة تالية أنشدت شعراً شعبياً على نغم لفيروز معروف، هو «جايب لي سلام».

وكان المصلون يردّدون «اللازمة» في وقتها.

وبعدها انتقلت الى الصالون وكانت ما تزال تتألم على ما يبدو. وجلست وتحلق الحاضرون بالتفاوت حولها. وفي تلك الفترة حصل لي الشرف ان اجلس دقيقة على يمينها طلباً للبركة، وانسحبت كي افسح المجال لغيري.

كان الاب الياس زحلاوي، من البدء، يشرف على الصلاة وينظمها: فاولاً بيت من المسبحة، ثم ترنيمة او ترنيمتان، فقراءة من انجيل القديس يوحنا، حتى استنفد الآلام بحسب يوحنا الرسول.

اما الاب معلولي فكان يصلي قرب ميرنا وهي في سريرها، على عادته.

وشهد الجراح اطباء، بينهم الفرنسي والاميركي والسوري وغيرهم. ولم أتمكن من تبيّن عددهم ودور كل منهم لأني آثرت ان افسح المجال لغيري. ومما يسترعي

الانتباه هذه المرة هو وجود عدد كبير من الاجانب وفدوا من فرنسا وبلجيكا والمانيا واميركا الشمالية وكندا وبوركينا فاسو، وايضاً من لبنان والاردن ومصر. وايضاً مرة اخرى شارك سوريون من مدن متعددة من القطر، فيهم الحلبي وابن الجزيرة والحوراني وغيرهم وغيرهم.

وقد شارك الاجانب في هذا الاسبوع المقدس بين اسابيع السنة، شاركوا في الاحتفالات من يوم الخميس ١٢ نيسان الى يوم الاثنين ١٦ نيسان. ورأيتهم مدهوشين بكل ما يرون ويسمعون: فكله جديد وروحاني، سواء في ذلك الصوفانية وغسل الارجل وجناز المسيح وهجمة الفصح والباعوث يوم الاثنين..

والحق ان يسوعا لم يأتِ هنا بجديد. ولكنه ينبهنا مرة بعد مرات الى الدرب التي رسمها لرسله عندما كان يعيش معهم، في قوله:

«من اراد ان يتبعني، فليحمل صليبه ويمشِ معي».

فعلى كل مسيحي، كي يكون جديراً بهذا الاسم، ان يعمل كل ما بوسعه كي يجتازها حسب ظروفه، حتى النهاية... وليس هذا بالامر العسير، كما قد يظن المرء للوهلة الأولى. فلكلِ انسان في كل يوم اتعابه، همومه... والخدمات التي عليه أن يقدمها لأهله، لأصدقائه... للقريب، والتضحيات التي عليه أن يتحملها من أجل الذين ذكرت، وغيرهم أو التي هي من متطلبات الحياة... هذه الأعمال تستمد معناها وقيمتها من نظرة الذي يقوم بها أو من موقفه منها: فاما أن يقدم ويتحمّل من أجل مساعدة القريب وبالتالي مجاناً ولوجهه تعالى، واما أن يحسب في كل خطوة يخطوها الربح الذي قد يجنيه والخسارة التي يمكن أن تقع عليه. فأيهما المسيحي؟ أيهما بالأحرى الأقرب الى الله، مؤمنا كان ـ وأيا كان ايمانه ـ أو ملحداً؟ والقريب هو كل انسان أنت في علاقة معه، أكانت هذه العلاقة آنية أم مستمرة. وهذا ما عبر عنه يسوع بوضوح قبيل صلبه، على ما جاء في انجيل القديس يوحنا: ان انتسابكم الي أخرجكم من العالم وأنتم فيه أو أنتم لستم من العالم ومع ذلك فأنتم فيه؛ يقصد: كي تشهدوا لي.

وهذا ما يطلبه يسوع على الضبط من ميرنا: أن تعيش بين الناس كما يعيش الناس: صديقة مخلصة مع صديقاتها، زوجة وفية مع زوجها... أمّا تربي الأولاد

الذين يرزقها اياهم الله، حسب مستلزمات التربية اليوم، لا لغاية سوى أن تشهد له تعالى بالصلاة والتأمل، بالتضحية من أجل الآخرين. أو بأن تكون مستعدة في كل لحظة أن تعمل على ارضائه تعالى وتمشياً مع ارادته، وعليه تعالى الباقي. وميرنا تمثلنا اليوم كلنا بصلاتها التي لا تنقطع، بخضوعها المطلق لمشيئته، ببساطة قلبها، باستسلامها العفوي وعلى الفور لكل ما يطلبه منها.

قولي لنا يا ميرنا...

قالوا: قولي لنا، يا ميرنا، ما الذي أراك اياه الربّ يوم خميس الاسرار ـ اياه ـ عندما أبعدك عنا لنصف ساعة؟

قالت: الشيء الذي عمله من أجل خلاصنا.

لم تؤت ميرنا فن الكلام. لو كان الرب علمها فن القول المبين، لكتبت لنا عن رؤاها، وفي أواخر هذا القرن، سفراً، استعادت فيه قديماً كان أوج ازدهاره في القرون التي سبقت وعقبت مباشرة وجود يسوع المسيح على وجه الأرض، ومنها سفر دانيال من العهد القديم، في العديد من صفحاته، وسفر (الرؤيا) المعروف الذي قدسته الكنيسة وهو للقديس يوحنا الرسول. وخير لهذه الصبية، أن الرب لم يعلمها هذا الفن. ففي تلك الأيام كانت الكتابة رسالة. أما اليوم فصارت سلعة خاضعة لقانون العرض والطلب، شأنها شأن السلع الأخرى. وقد توضع في سوق المناقصة عندما تتراكم فتكسد. لقد أراد الرب الإله لميرنا أن تبقى على بساطتها الأولى، عفويتها الطبيعية. وربما أنه أعادها الى الفطرة السليمة، بحيث يتحدث اليها بواسطة الأم القديسة وقدوسه يسوع، فتنقل الينا الكلام هو كما هو بدون تعميق أو تذويق... انها مرآة جعلها صافية الى أبعد حدود الشفافية، تعكس النور الذي ينسكب عليها والصورة التي تنطبع عليها الى كل من له عينان رائيتان فيرى.

سألوا: وما الشيء الذي عمله من أجل خلاصنا؟

أجابت:

خلعوا عنه ثوبه. ألبسوه ثوباً أرجوانياً. وضعوا على رأسه اكليلاً من شوك

ولطموه فسال دمه. طلبوا منه أن يمشي، فنزل درجاً وسار نحو جبل صعده. على الطريق أعانه فلاح على حمل الصليب. وعلى قمة الجبل صلب. كانت عند قدميه ثلاث نساء متوشحات بالسواد، جالسات على الأرض ورؤوسهنّ منحنية. وكان المشهد كله صامتاً. وارتفع صوت يقول: اغفر لهم يا أبي لأنهم لا يدرون ما يصنعون. فامتلأت السماء بالغيم الأسود وهطل المطر واختفى المنظر.

أهي عناصر من أجل لوحة للصلب مستمدة من الانجيل؟

كلا. انها اللوحة ذاتها، بلاغتها في عريها. فميرنا سجلت في ذاكرتها ما رأت، وأدته بأمانة. سيان فهمت أم لم تفهم ما رأت. شأنها شأن الرسل الأوائل، ومن بعدهم الانجيليون الأربعة الذين اقتصروا، كل منهم على أداء ما رأى. وترك للأجيال المقبلة، أمر ادراك ما عجز هو عن ادراكه. وهذه يسعفها الروح القدس في تفسير نص تتغذى منه البشرية طوال حياتها المديدة دون أن تستنفده.

وكذلك أمر أصحاب الرؤى الكبيرة في تاريخ الانسانية.

لقد رسمت مئات اللوحات وكتبت ألوف ألوف الدراسات. ووضعت وأنشدت وعزفت مئات مئات التراتيل والمعزوفات. وكلها تحاول أن تؤدي نص الانجيل، وكلها تقصر عنه. وهذا النص العتيق كان وما يزال وسيبقى، في عريه، أجمل وأنبل، أبلغ وأعمق من كل ما أبدعت البشرية للتعبير عنه.

قلت: لم يضع يسوع كتاباً. لم يطلب من أحد أن يكتب. بل عاش ما قاله، عاش الفداء بجسده وروحه في كل ما قاله، وعمل حتى الموت على الصليب. فالنص المكتوب ان هو الاّ تذكر لمن يذكر. والذكر هنا أن تعيش ما تذكر أو يذكرونك به. لا تقل: ما تذكره ميرنا مستمد من نص الانجيل. كل فداء، اياً كان نوعه، صاحبه، هدفه... مستمد من الفداء الأول والأخير. وميرنا سمح لها الله تعالى أن تعيش في جسدها وروحها، ضمن حدود استطاعته، هذا الفداء. أما أراها اياه يسوع في الخميس العظيم ـ اياه؟

قالوا:

حدثينا، يا ميرنا، عما رأيت، سمعت، ما قيل لك، ما أروك اياه طوال سبع

سنوات ونيف من الرؤى والظهورات، الانخطافات والجراحات... والرحلات في بلاد الله، وعن الرحلات الأخرى الى حيث لا اذن سمعت ولا عين رأت. حدثينا عن الزيت الذي يسيل، يتدفق من صور الايقونة المقدسة والايقونات التي تكرسها لها الام القديسة، من يديك ووجهك، من جسدك، من أماكن أخرى غير متوقعة... أمام عشرات البشر من كل الطوائف والاجناس، أمام الكهنة والاساقفة والسيادات الأخرى، أمام المؤمنين وغير المؤمنين.

حدثينا، يا ميرنا، وقولي: كيف يُرى اللامرئي ويُسمع اللامسموع؟

قولي لنا، يا ميرنا، كيف تتكلم العذراء القديسة، وبأي لسان ينطق ابنها قدوس الله. ما شكلها؟ ما صورته؟ ألم يكن مع أي منهما ملائكة يرافقونهما.

أجل سألوا،

وتحار ميرنا في أمرها، من أين تبدأ، وما الذي تقول؟ هل تعرف حقا شيئاً؟ من أين تبدأ؟ والأم القديسة هي التي تعلمها البداية والنهاية. لقد استأثرت بارادتها، بخيالها، بذاكرتها، بوجودها كله منذ الدقيقة الاولى. فهي للأم القديسة، ملكها تتصرف بها كما تشاء. أهي وسيط؟ لا. انها صدى، تعيد ما تسمع، تقول ما يقال لها. وقد تنساه. هل حفظت حقا ما سمعت ورأت؟ كله أم بعضه؟ لا تدري. الأم القديسة هي التي ستجيب عنها اذا أحرجوها. فتحار، تحني راسها، على عادتها وتلوذ بالصمت. لا تجرؤ على أن تردد أو تقلد الأم القديسة.

أنا أمة لأمي. فلتلهمني ما أقول.

أويمكن لذاكرتها الضعيفة أن تستوعب كل ما سمعت، ولخيالها القاصر أن يحيط بكل الصور والألوان التي رأت، ولعقلها المحدود جداً ان يدرك ويصنف العوالم التي ما برحت تتوالى امامها دون انقطاع طوال سبع سنوات ونيف بلياليها ونهاراتها؟ فالآية تبدأ وتنتهي، وهي ذاهلة عن وجودها الشخصي، حتى لكأن الآية امتصت شخصيتها ودمجتها فيها، فكلاهما (هي والآية) شيء واحد. عندما تثوب الى رشدها تردد ما سمعت وتقول ما رأت، وتعود الى حياتها الطبيعية، مع المصلين تصلي، في المطبخ تعدّ الطعام، في غرفتها التي صارت للأم القديسة تعتني بمريام.

فلله وحده الآيات يتصرف بها سبحانه كما يشاء.

الا أن الاب يوسف معلولي والاب الياس زحلاوي كانا يسجلان كلاهما أو أحدهما عند غياب الآخر، وبامانة كاملة، كل ما تقوله ميرنا حال عودتها من رحلتها مع العذراء القديسة، أو مع ابنها يسوع قدوس الله، الى العالم الذي اختاراه كي يعبّرا لها عن ارادة الله فيها وفينا، نحن الخطأة... ويبدو من كتاباتها:

أن عدد ظهورات الأم قد بلغت حتى اليوم (٥) خمسة، وعدد الانخطافات ـ حتى اليوم طبعاً ـ ثلاثة وثلاثون: سبع (٧) منها بدون كلام وبشكل نور ساطع في الأفق البعيد يشير الى وجود ما، ويتلاشى تدريجياً. وخمسة عشر (١٥) ظهر فيها يسوع، مسيح الله، اما بشكل نور قوي داخل نور يعبر عن عمق لامتناه وكأنه يشير الى وجود قدسي هو مصدر النور. واما بشكل رجل نوراني، ملامحه يكاد النظر لا يميز بينها. وثمة في الحالتين صوت رجل يملي رسالة.وأخيراً اربعة عشر ظهورًا ـ دوماً أثناء الانخطافات ـ للعذراء مريم. آخرها كان حتى اليوم في ١٥ آب ١٩٩٠. وتبدو الأم القديسة اما في مكان من الأفق مرتفع، واما في مساواة ميرنا. وهي على الغالب باسمة وفاتحة ذراعيها لتحتضن العالم. ومرة ظهرت جالسة على كرسي، وقد أمسكت بيديها يدي ميرنا تشدّ عليهما قائلة:

ـ اتريدين أن تأتي الي لنصلي معاً.

ـ نعم.

وتهم ميرنا بالذهاب الى أمها، فتنحني هذه وهي تقول:

ـ يكفي أنك عبرت عن رغبتك.

العذراء في كل هذه الحالات تملي احدى رسائلها.

وترتدي العذراء في الظهورات العادية وفي الانخطافات ثوباً أبيض بطولها، يضاف اليه شال أزرق اللون.

وكانت صورة يسوع واضحة في ٣١ أيار ١٩٨٤ (وهو يوم ذكرى الصعود)، في ١٦ نيسان ١٩٨٧ مع رؤية الآلام، وفي ٢٨ أيار ١٩٨٧ يوم خميس الصعود. كما رات جبلاً من نور في الجمعة العظيمة عام ١٩٨٤.

وفي سبت النور ١٨ نيسان ١٩٨٧، رأت ميرنا في انخطاف الساعة الحادية عشرة ليلاً، يسوعاً واقفاً ورافعاً يده يبارك. وخيّل اليها ان الرؤية هذه تشير الى قيامة يسوع، وقد صعد الى السماء، ومنها كان وما يزال يبارك من يفتح قلبه لتقبّل البركة.

ويوم سبت النور ١٤ نيسان ١٩٩٠، وكانت ميرنا تصلي مع المصلين، شعرت بتعب يرهقها، فرافقها الى غرفتها الأب يوسف معلولي وأحد المصلين. وعند عتبة الغرفة انسكب الزيت غزيراً من وجهها ويديها وسال على ثيابها وعلى الارض. ولما استرخت على سريرها حاولت اغماض عينيها. الا ان الألم كان شديداً الى حد منعها حتى من الاسترخاء لفترة امتدت قرابة عشرين دقيقة. ويريحها الانخطاف من اتعابها، الذي استمر حوالي عشر دقائق، رأت اثناءها نوراً ساطعاً خرج منه صوت أملى عليها الرسالة الرابعة والعشرين. وكانت مكرسة في عامِ وحدةِ العيدين لوحدتهما وللوحدة الدائمة..

ويسوع اوضح في كلامه عن الوحدة (الرسالة الرابعة والعشرين ـ تاريخ ١٤ نيسان ١٩٩٠). فهو يشدد على مفهوم الوحدة بلهجة قاطعة، وفيها اطلالة واضحة على المستقبل وما يشبه الانذار الذي أخاف ميرنا. اذ عندما سألها الأب الياس زحلاوي عمّا رأت وسمعت، قالت بلهجتها الحنون: «شيء مؤسف يا ابونا».

ـ وماذا؟ قال الاب الياس زحلاوي بتوقع ملهوف.

عندها أملت ميرنا الرسالة الرابعة والعشرين من رسائل الصوفانية. وهاك نصها:

«ابنائي،

«أنتم ستعلمون الاجيال كلمة الوحدة والمحبة والايمان.

«أنا معكم.

«ولكن يا ابنتي، لن تسمعي صوتي الا والعيد واحد».

والرسالة تقسم الى قسمين:

الاول هو كون الوحدة والمحبة والايمان امر واحد.

الثاني الذي قد يبدو لبعضهم واضحاً هو لغزي في الحقيقة. فهل يقصد يسوع ان وحدة الكنائس قريبة؟. ام انه يوجّه لنا، بلسان ميرنا، انذاراً: وحّدوا كنيستي،

بعد ان قسّمتموها، والا فلن تروني قبل زمان طويل؟.

تفسيران صحيحان في رأيي.

ثمة تفسير ثالث للاب الياس زحلاوي وهو ان يسوع سيسرّع فعل الوحدة. وأتمنى أن يكون هذا التفسير هو الاصح.

ـ أوتظن ان هذه المواصفات المختزلة يمكن ان تعطينا صورة مقاربة للام القديسة ولابنها قدوس الله، عند تجليها لميرنا؟.

ـ أوتعتقد بالمقابل ان مئات الصور التي ابتدعها احياناً مصورون عباقرة واستلهموها، ممّا ذكره قديسون عن العذراء مريم او ابنها يسوع او غيرهما من اولياء الله، عندما تجلّى احدهم له، والمنتشرة بالوف النسخ في كنائسنا وبيوتنا وكتبنا الدينية، هي بدورها مطابقة لما رآه هذا الولي او ذاك؟.

ـ أبداً

ـ وبالفعل، فالرؤيا هنا حالة فريدة من نوعها، وليس بمقدور الرائي أن يعيدها أو يستعيدها، هي كما هي، ولكن شاعت بنتيجة هذه الرؤى المتكررة عبر العصور منذ ألفي عام، صورة هي في خيال الشعب المسيحي في ملابسة تاريخية معينة، صورة هذا الولي أو ذاك، صورة الأم القديسة عندما بشرها الملاك، أو صورتها عندما احتضنت ابنها عند انزاله عن الصليب. فالرؤيا والصورة المقابلة لها هي، في الوقت ذاته، عامة شاملة ومرتبطة بمكان معين في حقبة تاريخية محددة من جهة، وبشخص الرائي من جهة أخرى.

ولا تشذّ ميرنا عن هذه القاعدة، لا هي ولا جمهور مصلي الصوفانية الذين تعرفوا في ميرنا الى أمهم والى ابنها الذي هو قائدهم على درب الحياة الصعب، كما كانوا يتخيلونها منذ زمن طويل، وسوف يتصور يوماً مصور عربي لتراث الصوفانية ويبتدع لنا صورة لعذراء الصوفانية وابنها، كما يتبديان عبر رسائلهما.

ـ وتبقى مع ذلك المشكلة التي لن يوجد لها أبداً حل: كيف يُسمع اللامسموع ويُرى اللامرئي؟

ـ ليست ميرنا التي تسمع ولا أنت. ليست ميرنا التي ترى ولا أنا. بل ان الله تعالى هو الذي يعبر لنا عن ارادته فينا، في ظرف تاريخي معين بصوت قدوسه

يسوع، بواسطة الام القديسة أو غيرهما، عبر وسيط يريده شفافاً، أميناً، طبعا... مثل ميرنا.

ولكن يبقى الزيت هو الآية المحسوسة، الملموسة، الأوضح عن حضور الام القديسة أو ابنها في الصوفانية أو في أماكن أخرى. وهو يسيل على الغالب من يدي ميرنا. انه مستمر كالصلاة، تارة يتأخر عنها، ينقطع، وعلى فجأة يتسارع ويسبقها. وليس مرتبطاً بزمان أو مكان محددين. فقد سال في مستشفيات، في بيوت خاصة، في كنائس، منها كنيسة نيحا للسريان الارثوذكس على بعد ١٥٠ كم من حمص، سال في عمان، في بيروت، في زحلة، جورة البلوط، معاد (لبنان)، في بيت ساحور (الارض المحتلة)، في فرنسا، في المانيا الاتحادية، في سان فرنسيسكو (الولايات المتحدة الامريكية). ولكنه ليس مرتبطا ضرورة بالصلاة. فقد يسيل أثناء الحديث عن الأم القديسة، سال من كتب مقدسة، من زجاج الايقونة المقدسة، وأيضاً من الجدار وراء البيت الصغير الذي حفروه للام القديسة. سال من يدي ميرنا، من عنقها، من صدرها، من عينيها، من قدميها، من ايقونة للام القديسة معلقة في عنقها... سال من معدتها بعد ثلاثة أيام من الصوم الكامل... انه، كالذي يستدعيه بأمره تعالى، لا يرتبط بموعد ولا بشخص، لا بزمان ولا بمكان... انه طليق كالروح الذي يتحدث عنه يسوع في انجيل الرسول يوحنا، يهب أنى شاء ومتى أو كيف شاء... يعرفه الذين أعطاهم تعالى القدرة على معرفته.

على درب الصليب

ان كل مرحلة من مراحل سيرورة الصوفانية الأربع تتضمن بشكل أو بآخر، المراحل الأخرى كلها. وتتميز عن الأخرى في أنها تشدد على جانب من جوانب السيرورة كلها. فالأولى (منذ البداية وحتى نهاية تشرين الأول ١٩٨٣) بمثابة اعداد للمصلين وميرنا لما يلي. والثانية (تشرين الثاني ١٩٨٣ ـ آب ١٩٨٥) تتوجه بالدرجة الأولى الى ميرنا، تعيد تكوينها الروحي ـ والجسدي طبعاً ـ كي تتلقى الرسائل، تتقيد بها وتبلغها الى المصلين والعالم، قولاً وعملاً. الثالثة (أيلول ١٩٨٥ حتى أواخر ١٩٨٧) مرحلة الخيار الحاسم (أنا أو العالم) ورسم درب الخلاص الذي هو درب الصليب.

أما الرابعة (الممتدّة بين ١٩٨٥ و١٩٩٠) فتبدو حتى الآن على أنها تأكيد للمعاني المقدسة التي حددتها الرسائل السابقة وتعميقها، والتي هي قوام سيرورة الصوفانية، ومنها بالدرجة الأولى: وحدة القلوب التي سيبني عليها يسوع كنيسته الواحدة، دور الام القديسة الأساسي والفريد في حياة المؤمن التي هي الحياة في الله. فيسوع يقول في رسالة ١٤ـ١٥ آب ١٩٨٧ موجهاً الكلام الى ميرنا:

« ابنتي، هي أمي التي ولدت منها.
من أكرمها أكرمني
من نكرها نكرني.
ومن طلب منها نال لأنها أمي»

دور الصوفانية الأساسي بوصفها مدخلاً للكنيسة الواحدة. فيسوع يقول في رسالة انخطاف ١٩٨٦/١١/٢٦ موجهاً الكلام أيضاً الى ميرنا:

« ابنتي،
ما أجمل هذا المكان فيه سأنشي ملكي وسلامي».

ويسوع لا يعنيه المكان ذاته، بل القلوب المتواجدة في المكان، تصلي. ولهذا يضيف تواً:

«سأعطيكم قلبي لأمتلك قَلْبكم.»

ثم الصلاة المستمرة بلا ملل، التواضع، خدمة القريب، المحبة المعممة... وبالنتيجة الفداء الذي هو الطريق الى الله تعالى. فكلنا بمعنى ما ميرنا، مدعوون مثلها للاختيار بين الله والعالم، بين تمجيد الله لنا الأبدي، وتمجيد العالم الذي يزول بزواله.

وأيضاً مرة أقول ان هذا التقسيم الى مراحل، تقريبي، اخترته لأني رأيت فيه الاطار الأصح لترتيب تأملاتي في سيرورة شعرت منذ الأسبوع الأول ـ وما أزال ـ ان يد الله تعالى فيها؛ أطلب منه أن ينور طريقي وطريق كل انسان.

كانت الفقرة السابقة من هذه التأملات مكرسة بالدرجة الأولى لمعنى الفداء، استوحيتها من وجودي بالقرب من ميرنا في ذلك الخميس المقدس بين أيام السنة (١٦ نيسان ١٩٨٧). اذ شاء الله تعالى في حكمته اللامتناهية، أن ترى الصبية

بعينيها مراحل صلب السيد المسيح وتعيشها بصمت في جسدها، ليبين لنا أن الفداء ليس كلمة نرددها وننساها أو نتناساها، بل هي دستور حياة كاملة، يحياها كل منا من موقعه ووفق ظرفه. فقد كان يسوع يقول لكل من يأتي اليه ليسير معه:

تخلَّ عن كل شيء ثم احمل صليبك واتبعني.

والصليب حاضر بشكل أو بآخر، في العديد من رسائل الام القديسة وابنها. الا أن السيد المسيح يكشف في رسالة انخطاف الأربعاء ١٩٨٦/١١/٢٦، عن أهم معانيه أو عن دوره في حياة المسيحي اذ يقول:

« صلوا من أجل الخطأة
فكل كلمة صلاة أسكب فيها قطرة من دمي على أحد الخطأة.»

وهذا يشير الى أن المسيحية شركة صلاة وعمل خير، ينبوعها وأساسها في استحقاقات السيد المسيح الذي فدانا كلنا بدمه. تلي الأم القديسة فالقديسون أولياء الله وجماعة المصلين. فكل منا بني البشر مدعو لأن يفدي اخوته، أقله بالصلاة وعمل الخير. وهذا يطرح سؤالاً بمنتهى الأهمية، أقول مسبقاً أني لا أعرف الجواب عنه، وهو: أيعني أن الله يغفر للخاطىء لمجرد أنا صلينا من أجله بقلب متخشع متواضع، وأكثرنا من الصلاة؟ ربما. أم أن الله تعالى يستجيب لصلاتنا بان ييسر للخاطىء طريق اهتدائه؟ على الأرجح. وربما أن الجوابين جائزان. ولكن المسيحي المقصود هنا ليس ذلك الذي تعمّد ويحمل اسم مسيحي، فربّ رجل خير وصلاة يقدم للناس خدماته مجاناً، أقرب الى الله، ايا كان دينه ومعتقده، من المسيحي الذي يفاخر به اسم بلا مسمى... أخلص مما تقدم الى نتيجة أعتقدها أيضاً هامة، وهي: كما أن أبناء الأمة الواحدة متضامنون في المصير، أياً كانت طوائفهم وانتماءاتهم المذهبية والحزبية، كذلك أفراد البشرية، منذ أن وجدت البشرية وحتى تزول بأمره تعالى! فهم يؤلفون، بمعنى ما، شركة تضامنية، كل من أفرادها مسؤول عنها كلها، قدر استطاعته.

ويضيف يسوع بعد الكلام السابق، وهو يتوجه دوماً بالكلام الى ميرنا:

« ابنتي، لا تضطربي من الأرضيات
فبجراحاتي تكتسبي الأبدية.»

في هذه الفقرة التي تكمل السابقة، تتكامل معها، تعمقها وتشرحها، فكرتان:

الأولى هي أن يسوعا مسيح الله، الذي يتوجه بكلامه الينا كلنا، عبر ميرنا، مستعد دوماً، جاهز دوماً لأن يفدي كل انسان «فبجراحاتي تكتسبين الحياة الأبدية» يقول لميرنا. ولكن ـ الفكرة الثانية ـ بشرط واحد «ابنتي، لا تضطربي من الأرضيات» يقول ايضاً لميرنا، بشرط الاّ يمكّن الانسان الأرضيات (أي اغراءات هذا العالم التي لا حدّ يحدّ ازديادها) من أن تقترب الى قلبه، فتزعزع ثقته بالله تعالى. ان شراك هذا العالم تحاصر ميرنا كما حاصرت القديسين أولياء الله وتحاصر كل انسان. ولا بدّ أن تزرع في قلبه الشكوك. فالمطلوب منه أن يتصدى باستمرار لها. واذا أغوته ووقع، كان عليه أن يعود الى الله طالباً مغفرته ورحمته، وهو سبحانه لا يبخل بعطاياه على أحد. أليس هو الذي كتب على نفسه الرحمة، وهو الذي يطلع بشمسه على الأخيار والأشرار؟

الفقرة الثالثة تجعل الفقرتين السابقتين جليتين تماماً:

« أريد أن أجدد آلامي
وأريدك أن تنجزي مهمتك
فلا تستطيعين دخول السماء الاّ اذا أنجزت مهمتك على الأرض.»

والفقرة الثالثة والأخيرة تكشف عن مضامين الفقرتين السابقتين. هذا مع الاعتراف دوماً بأن وجودنا والوجود كله يزولان، والكلام الذي هو دستور حياتنا لا يستنفد. يقول يسوع:

« أريد أن أجدد آلامي
وأريدك أن تنجزي مهمتك
فلا تستطيعين دخول السماء الا اذا أنجزت مهمتك على الارض.»

والحق أن يسوعا، مسيح الله، يجدد آلامه كل يوم، في كل منا نحن بني البشر، اذ ان لكل منا صليبه الذي قد يكون ابنه، أخاه، صديقه، جاره... أو المجتمع وقوانينه الجائرة أو مؤسساته الطاغية التي تفرز الظلم باستمرار، وبشكل يعجز المرء عن ردّه. من الطبيعي جداً أن يشكو الانسان، يشتم، يتمرد تعبيراً عن عجزه عن الاصلاح. وبعد ماذا؟ ليس الله تعالى هو بالضرورة السبب، كما قد يتوهم الاتكاليون. فللمجتمع قوانينه يسير بموجبها. فالتحمل الصامت لانقاذ الانسان أسرته أو أحد أفرادها، أو صديقه... هو أيضا اشتراك في آلام يسوع، عرف المرء

ذلك أم لم يعرفه. وكم وكم من الناس هداهم هذا السلوك النبيل ـ عند الله طبعاً ـ الى حقيقتهم. وكم وكم من الناس أيضاً أنارت لهم الصلاة الطريق! أولم يقل يسوع:

« اطلبوا تجدوا
اقرعوا يفتح لكم»

ليست الصلاة حلاً ولا بداية حل. ولكن يجب أن ترافق كل خطوة من خطانا وكل طريق نسكله حتى ولو كان هذا الطريق هو الثروة... لأن الله تعالى حاضر في كل فعل من أفعالنا. ويختم يسوع بقوله لميرنا:

«اذهبي بسلام»

أملى يسوع الرسالة التي حللت للتوّ بعضاً من فقراتها (١٩٨٦/١١/٢٦) سنة واحدة بعد الخيار الحاسم (١٩٨٥/١١/٢٦) وفي المناسبة ذاتها (الذكرى السنوية لبداية ظهورات الام القديسة في الصوفانية). ولا توجد بينهما اية رسالة أخرى لا منه ولا من الأم القديسة. لكأن يسوعا ترك لميرنا ولنا فسحة سنة كي نتأمل في الخيار الحاسم وفي بقية مضامين رسالته... ثم شرح هو نفسه رسالته بأغلب أوجهها. وبشرحه شق لنا فسحة أخرى للتأمل بشكل خاص في فقرتين من رسالة الخيار الحاسم. الأولى هي:

« أنا صلبت حباً بكم
وأريد أن تحملوا وتتحمّلوا صليبكم من أجلي بطوع ومحبة وصبر.»

الثانية هي:

« لا خلاص للنفس الاّ بالصليب.
فمن شاركني بالعذاب أشاركه بالمجد.»

ألاحظ بالمناسبة أن نصّي ١٩٨٥ و١٩٨٦ ونصوص الرسائل الأخرى وضعت بالعربية الفصحى الأقرب متناولاً الى فهم الانسان العربي العادي. فالصيغ ركيكة أحياناً والكلمات فجة. الاّ أن الله تعالى يخاطب كل جماعة من منطلق رؤيتها للوجود بشكل عام، وبالرموز والاستعارات والكنايات... أو باللغة الواضحة الجلية عندها. ومع ذلك يساء فهمه تعالى.

وألاحظ أيضاً أن النصين لا يعنيان، ولا بصورة من الصور، أن على المسيحي

الاستسلام للظلم والاستكانة للاضطهاد أو للطغيان. فالثورة صليب، والحرب صليب، والجهاد من أجل تحرير الوطن أو استعادته صليب. الاّ أن السؤال الذي تطرحه هذه الامثلة وغيرها مما يشبهها هو: ما المعيار الذي نقيم به الحد بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة؟ بين ما يعمله الثائر من أجل تحرير الشعب وبين ما يعمله من أجل تفريغ الشحنات الانفعالية التي ركمتها في لاشعوره سنوات من الحقد؟

ولكن من يستطيع التميز في أعمالنا الفردية، صغيرها وكبيرها، بين ما هو عائد الى ارادة الخير وبين ما هو حصيلة عقدنا النفسية مثلاً؟ فقد تتسرب الكبرياء الشخصية الى أطيب النوايا. فما بالك بالقرارات الجماعية التي هي دوما نتيجة تسويات؟ ما بالك بالثورة والعقل الثوري حيث يخلط الحابل بالنابل، وقد يذهب ضحية الخوف من الثورة المضادة والغزو الأجنبي عشرات الأبرياء. والبرهان هو أن العلماء ما يزالون حتى اليوم، وبعد مرور قرنين على الثورة الفرنسية، على خلاف في شرحها وتفسيرها يذهب الى حد التناقض. ولهذا فقد يذهب بعضهم الى أن من جملة الأسباب التي جعلت الانسان الأقدم يكتشف فكرة الله، لاعتقاده بضرورة وجود كائن أسمى يحكم بين الناس بالعدل.

أجل الحكم هو لله اليوم أكثر من الماضي، أو بالنسبة الينا نحن أبناء هذا الزمان الذين صرنا نعرف لحد ما أن تركيب الانسان، روحا وجسدا، أعقد بكثير وأكثر استعصاء على التحليل مما كان يرى القدامى. ويبدو من الكتب المقدسة أن الله تعالى يحاكم الناس على مقاصدهم الواعية وعلى نواياهم الصريحة.

السؤال الذي قد يطرحه القارىء، من وجهة النظر الدينية ـ الأخلاقية، عند قراءته نصوص رسائل الصوفانية، هو التالي: علام هذا التشديد المستمر على جراحات يسوع، مسيح الله؟ ففي النصوص التي ذكرت للتوّ، وكما رأينا، تتكرر باستمرار كلمات: صلب، دم، جراح. وكلمة جراح هي الأساس في احدى الصلوات التي يعلمنا اياها يسوع (انخطاف ٢٢ تموز ١٩٨٧. معاد ـ لبنان):

«أيها الآب، بحق جراحات ابنك الحبيب خلصنا»

وهي أيضاً أساسية في الرسالة التي يوجهها يسوع الى ميرنا (١٠/١٠/١٩٨٨ كنيسة مار جريس ـ معاد ـ لبنان):

« ابنتي ماري
لماذا تخافين وأنا معك؟..
سأعطيك من جراحاتي لتنسي عذابات البشر لك»

والأم القديسة تقول في رسالة انخطاف ١٩٨٣/١١/٤:

«قلبي احترق على ابني الوحيد»

وفي رسالة انخطاف الأول من أيار ١٩٨٥:

« أولادي اجتمعوا
قلبي مجروح
لا تدعوا قلبي ينقسم على انقسامكم»

حتى ليكاد المرء يعتقد عند قراءة هذه النصوص أن الام القديسة وابنها في حالة مستمرة من اللوعة والأسى... وأيضاً مرة: ما الهدف من هذا الالحاح على «القلب المجروح». وما معناه؟ ما دواعيه؟ ألأن أول من يسمعون هذه الرسائل هم على الغالب من فقراء الناس، والعالم الفقير محروم من الضروري في عالم يغزوه الترف والدعاوة له. والعالم الغني المترف حقا يشكو من فراغ نفسي ـ روحي يستخدم المخدرات لينساه... أم لأن السعادة في الحياة الانسانية تشكل حالاً عابرة، والألم بأشكاله النفسية ـ الجسدية المتعددة أكثر استمراراً؟ أم لأن شبح الموت يخيم باستمرار على الوجود الانساني بحيث أن «فرويد» وجماعته وضعوا الموت في قلب الحب، والبيولوجيون يرون اليوم الموت كامناً في الحياة، وهو بُعد من أبعادها. ربما، كل هذه الأسباب جائزة. الأصح هو أن الذي يمنح السلام للانسان في الحياة الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، كما يرى يسوع المسيح هو خدمة القريب. وكل خدمة للقريب هي وجه من أوجه فعل الفداء. وبتعبير آخر فان الذي يكوّن فسحة الحياة المسيحية أو يشقّها في الوجود الانساني ويعطيها معناها هو خدمة القريب أو فداؤه. والاثنان، الخدمة والفداء، واحد. فقد تكون الخدمة في أن يبذل الانسان ذاته فداء عن القريب. فأين وأنى توجهت في الفسحة المسيحية فلا تقع الا على الخدمة والفداء. فكل من يقدم للقريب خدمة مجانية هو من جماعة يسوع، مسيح الله، أيا كان معتقده ولو كان ملحداً. والحاسم أمام الناس والله هو العمل لا الانتماء وحده.

سأربي جيلي فيك

هذه العبارة ترددها الأم القديسة مرتين ويسوع مراراً. فمن هو جيل العذراء وابنها؟ ليس بدون شك الانسان الجديد الذي شاع الحديث عنه في الستينات والسبعينات من هذا القرن. ولا الجيل الذي يتكون اليوم ونطلق عليه اسم «الناشئة». ليس النخبة التي تكونها الدول العقائدية والتي تتقمص ايديولوجيتها وتنشرها. ليس فئة من الناس أو طبقة. وليس محدوداً بحد معين أو محدوداً بشعب ما أو أمة من الأمم. انه بكل بساطة مجموع الذين يقصدون الصوفانية للصلاة، أو الذين يتوجهون بالصلاة الى ايقونة الصوفانية المقدسة وهم بعيدون عن دمشق أو عن حي الصوفانية، أو المصلون الذين لا يستطيعون الذهاب الى الصوفانية لسبب أو لآخر. وقد نوسّع معنى الكلمة بحيث يشمل كل الذين ينتمون الى العذراء أين وأنى كانوا. هؤلاء اختارت لهم الأم القديسة من بينهم، وعلى الضبط من أبناء وبنات الصوفانية، واحدة تتقدمهم بتواضعها وامحائها، باستمرارها في الصلاة، بصبرها وتحملها، بقدرتها على المحبة والعطاء لتشق لهم درباً ـ هو درب الأم القديسة ـ يسيرون عليه، أو لتكون طليعتهم في سلوك هذا الدرب. تلك هي ميرنا التي اختصها الله تعالى بنعمه. أقصد هنا بتربية خاصة قد تجعل منها في المستقبل، وجهاً انسانياً ـ مسيحياً مميزاً بفضيلته. وأقصد بالفضيلة هنا أن يعيش الانسان في العالم وله وكأنه ليس منه. فهو مع الله بقلبه وخياله وعقله، لله وحده، والله تعالى يعيده الى العالم حيث عليه أن يشهد له، ينشر ارادته في العالم. ان على الانسان أن يسير على الدرب، أقله أن ينوي السير على الدرب التي يختارها له الله، والباقي على الله تعالى. فميرنا كلها لزوجها وولديها، لأسرتها وبلادها. وهي في الوقت ذاته للأم القديسة ولابنها قدوس الله اللذين يقدمانها له تعالى.

* * *

ولكن ما هي هذه التربية التي تدعو اليها الرسائل ويحاول المصلون تحقيقها، كل منهم في شخصه وحوله؟ الحق أنه لا يوجد في الجواب عن هذا السؤال ما هو حقا جديد بالقياس الى ما ذكرت سابقا عن روحانية الصوفانية، ولا ما هو جديد بالقياس الى تعاليم الكنيسة المتفق عليها لدى كل الطوائف. فالرسائل، أكانت من الأم القديسة أم من ابنها، تتميز بتعاليم الكنيسة الموروثة عن الرسل، كما أن مصلي الصوفانية يحاولون كل منهم، التقيد بهذه التعاليم. وفي اعتقادي أن الانسان المنصف لا يمكنه حتى ولو كان ملحدا، الا أن يوافق على جوهر الصوفانية كما تحدده الرسائل ويتجلى في سلوك المصلين. فخدمة القريب، الامحاء أمامه، فداؤه... معان انسانية في كل زمان وكل مكان. فاذا لم تكن جدة تربية الصوفانية في المضمون أو الجوهر والمعنى، فأين هي اذا؟ أفي الصياغة؟ الصياغة تقليدية مألوفة بُسِطت الى أبعد حدّ ممكن، كما سبق وقلت. أم في ترتيب العناصر والأفكار الرئيسية بعضها بالنسبة للبعض الآخر. انها على الخصوص في التشديد على هذه الأفكار مما تستلزمه المرحلة التاريخية. وأولها فكرة التربية ومن ثمّ الصلاة فالتبشير وأخيرا وحدة الكنيسة. والتشديد كالصياغة ضرب من ضروب الترتيب. وفي اعتقادي أنا، اذا انتقلنا من السطح الى الأعماق في الشؤون الانسانية، نلاحظ أن كل تجديد هو ضرب من ضروب ترتيب الأفكار القديمة ترتيبا جديدا على حدّ تعبير باسكال... وتربية الانسان، فردا وجماعة، أو اعادة بنائه، كما يقولون اليوم، ضرورة من ضرورات الحضارة التكنولوجية المبرمجة الأكثر الحاحا، اذ ان هذه الحضارة، اذا تركت وشأنها، تعيد بانجازاتها الموروثة تكوين الانسان لتجعله على صورتها ومثالها، أي آلة واعية تخدم أهداف الآلة ذاتها... وبتعبير آخر، فان الحضارة التكنولوجية المبرمجة هي، في تاريخ الانسانية، أول حضارة تفرض ذاتها بصورة صريحة ووقحة على أنها غاية بذاتها. ولهذا يشعر الانسان اليوم بشعور متزايد في الالحاح، انه بحاجة الى اعادة ذاته بشكل يمكنه تخليص ذاته من براثن الآلة ومن ثمّ السيطرة عليها. فما بالك بالمسيحية التي تستهدف، مع أي ايمان آخر ينطلق من معنى الاله الواحد الخالق من العدم، اعادة الانسان الى ذاته والى الله الذي هو غايته القصوى؟ ويبدو لي، اذا انطلقت من ميرنا التي خصها الله بنعم قلما جاد بها على انسان آخر - ومنها الظهورات والرسائل، الانخطافات وظهور جراحات الصليب على جسدها... ان التربية المسيحية الجديدة

تختلف عن التربيات المسيحية السابقة كلها في نقطة جوهرية. فالمسيحية السابقة كانت تطلب من الانسان أن ينقطع، الى أبعد حدّ ممكن، ليعيش مع الله. أما المسيحي اليوم فالمطلوب منه أن يعيش في العالم وفي الله، أو أن يعيش مع الله وله في العالم.

ـ هذا غير ممكن، قد تقول

ـ الممتنع عند الانسان، ممكن عند الله: انه على كل شيء قدير. فميرنا زوجة، أمّ، ربة منزل، صبية من صبايا حيها. وتكرس نفسها، في الوقت ذاته، لخدمة الله والقريب. فهي زاهدة في أمور الدنيا، تصوم وتصلي اكثر من أي واحد من جماعة الصوفانية. وتفاجئك حقا عفة نفسها، بتواضعها وامحائها أمامك.

وما نزال في بداية الطريق ...

كما يفاجيء قاريء الرسائل الحاح الأم القديسة وابنها قدوس الله على الصلاة، الحاضرة بشكل أو بآخر في العدد الأكبر من رسائلها... والصلاة، وان كانت مألوفة عند كل المؤمنين بالاله الواحد الذي هو على كل شيء قدير، وان كان يسوع المسيح قضى الشطر الأكبر من حياته في الصلاة، كما تقول الاناجيل، وان كان القديسون وأولياء الله في كل زمان ومكان، يحيون أياما عديدة بلياليها في الصلاة، فالصلاة في الحقيقة ودورها في حياة الانسان غير واضحة لدى أغلب المؤمنين. فقلّ منهم من يعرف أن الصلاة عند اكتمالها، ونادرا ما تكتمل، هي الحياة في الله، مع الله وله. أما في واقعها العادي المألوف لدى المؤمنين، فهي السير أو محاولة السير في الطريق التي تؤدي اليه تعالى. فالصوم ان هو الاّ محاولة لخلق الشروط التي تمهد للصلاة. أما الأخلاق، وان كانت انسانيا، غاية بذاتها، وان كانت بعدا أساسيا من ابعاد الحياة الروحية، فليست في سياق الحياة الدينية الاّ الشرط الذي، اذا سقط، سقطت معه الحياة الدينية والحياة الروحية. اذ ان الصوم والاخلاق والسلوك الطيّب وغيرها من وسائل الحياة الدينية والروحية تبقينا ضمن العالم. أما الصلاة فتباعد بيننا وبينه وتدريجيا، تسلخنا عنه. ثم تشق في داخلنا وحولنا فسحة روحية تزداد صفاء، سعة وعمقا مع الاستغراق في الصلاة. وهذه الفسحة هي حيث يأتي الله لملاقاتنا والتحدث الينا. وبتعبير آخر أدق، فاننا كلما خطونا نحو الله خطوة بالصلاة، خطا نحونا خطوات. انه دوما ينتظرنا، يسبقنا،

يهب لملاقاتنا لمجرد أن نلتفت نحوه وندعوه. ولهذا أكاد أقول ان الصلاة لوحدها تشكل كلية التربية المسيحية، وبمعنى ما كلية الحياة الدينية. فالتبشير والعمل من أجل وحدة الكنائس، ضرب من ضروب الصلاة. وبالمقابل فان الصلاة هي التي تقرب القلوب من بعضها، وهي التي تجعل الآخرين يؤمنون بأنا نعمل، لا لغاية أرضية، بل لمجد الله تعالى. وهذا هو جوهر التبشير. والصلاة المستمرة تعيد تكوين الانسان، عقلا وخيالا، عاطفة وارادة. ذلك أن الصلاة المستمرة تعيد النظر، بنسبة استمرارها، في تكوين الانسان عقلا وخيالا، ارادة وعاطفة... تعيد النظر في علائقه مع ذاته ومع الناس، في تعامله مع الاشياء، في رؤيته الموجودات وحتى في منعكساته. ولا عجب فالحياة مع الله التي هي جوهر الصلاة، هي الفسحة الروحية التي تشكلها في الانسان وحوله، تكون للمصلي عالما يتميز عن عالمه العادي بالصدق والصفاء النفسي، بالنبل وخدمة القريب... ومع الله أو أمامه، لا يمكن للانسان أن يكذب أو يدعي ما لا يستطيع عمله فيتكبر، بل يعود الى حجمه الطبيعي ويعرف قدراته الحقيقية فيتقيد بها، ويرى بالنتيجة أنها، على الرغم من محدوديتها، كبيرة وكثيرة... فالله تعالى غالبا ما يبارك أعمال الانسان المخلص.

يعتقد الناس على الغالب أن اخلاص الانسان لمهنته، لوظيفته، لفنه أو لأي عمل يقوم به، هو ضرب من ضروب الصلاة. وهذا صحيح. ولكنه لا ينوب مناب الصلاة بالمعنى الدقيق للكلمة. فالصلاة تقوم على أن نمثل أمام الله، نعترف له بخطايانا، نطلب مغفرته، نشكره، نمجد اسمه. ونطلب منه لنا، ولأهلنا وللعالم بركته ونعمته. وهو اذ يستجيب لنا، يرفعنا الى مستوى الصلاة الأكمل، وهي أن نحيا فيه، له ومن أجله.

الصلاة تبدل. الصلاة اذاً عمل، فعل. وكل فعل قابل للانتشار عن طريق المحاكاة والعدوى. والصلاة تبشير بهذا المعنى، أو رسالة اذا شئت. ولا تنفصل الرسالة عن التبشير، ولا ينفصل التبشير عن الرسالة... الاّ أن للتبشير طرقا أخرى غير الصلاة، هي التي تدل عليها بكلمة تبشير.

قلت يوما وأنا أقرأ رسائل الصوفانية وأتأمل في معاني التبشير وطرقه: أو يمكن للمرء أن يتصور ميرنا مبشرة؟ وهذا ما يطلب منها يسوع نصا «اذهبي وبشري». تلك مفارقة أن تصبح هذه الصبية الوديعة، الحيية، الخجولة، تقف على العموم أثناء صلوات الصوفانية في مؤخرة المصلين. كيف تستطيع هذه الفتاة الصامتة

اعتياديا، تفهم بعاطفتها وحساسيتها، لا بعقلها، وتجهل كليا فن الكلام،أن تقنعك بصحة ايمانها، كما يقنع المبشرون الناس عندما يقفون بينهم؟ كيف يتسنى لهذه الفتاة التي لم تغادر دمشق على ما يبدو، الآ مع زوجها في رحلة الزواج الى ايطاليا، أن تجوب العالم لتعلن رسالة الصوفانية؟ وهذا ما يطلبه منها يسوع نصا «اذهبي الى العالم...» ولكن ألم يقل يسوع لرسله الذين كان أغلبهم من بسطاء الناس الأميين: «اذا مثلتم أمام المجامع، فلا تضطربوا ولا تخافوا مما ستقولون وتملون، فسيلهمكم الروح القدس الذي أرسله اليكم». لا بل ان من مفارقات الصوفانية التي تبدو للوهلة الاولى وكأنها حركة صلاة محلية مرتبطة بحي هامشي من أحياء دمشق، أنها بدأت تتوالى كحركة تبشير. فالأم القديسة تقول في احدى رسائلها (١٩٨٢/١٢/١٨) رابطة الايمان والخلاص بالتبشير:

« توبوا وآمنوا واذكروني في سروركم.
بشروا بابني عمانوئيل
فمن بشر خلص، ومن لم يبشر فايمانه باطل»

وتلك هي، على ما أعلم، المرة الأولى بعد انتهاء عهد الرسل الأوائل التي تطلب فيها الأم القديسة وابنها يسوع، من الناس أن يبشروا.

فما التبشير؟ ما معنى هذه الكلمة التي صارت بغيضة عندنا نحن العرب لارتباطها بالاستعمار؟ ما طرقه في عصر الاعلام المعمم الذي يبدو أنه ألغى التبشير مرة ولكل مرة، أو يبدو أنه أبدل التبشير الديني بالتبشير الايديولوجي؟

التبشير بمعناه الأعم هو الدعوة لقضية ما، والدعاوة لها من أجل نشرها على أوسع نطاق ممكن. والتبشير من السمات المميزة للجماعات الانسانية. فالمدارس على الخصوص التعليمية، الجمعيات الدينية والسياسية، الاعلام بأنواعه، الارساليات والبعثات... والحروب ذاتها، وغير ذلك من الحركات والمؤسسات الاجتماعية، كلها تبشيرية، أقله في جانب من جوانبها. فكأننا ـ نحن فعلا ـ في عصر التبشير المعمم تتولاه الدول والمؤسسات السياسية، وترصد له الاعتمادات المالية الكبيرة والوسائل التقنية الأحدث. فاليوم وأكثر من أي يوم مضى، يعبر انتشار الايديولوجية وثقافتها الطريق الملكي لانتشار نفوذ الدولة صاحبة الايديولوجية ومشاريعها السياسية ـ الاقتصادية. ومن الطبيعي في وضع كهذا أن

تفيد الاديان ـ معظمها، بما فيها المسيحية ـ من وسائل الاعلام الحديثة ـ بنسبة قدرتها على الافادة طبعا ـ لنشرها عقائد ايمانها. ولقد صار اليوم التبشير الديني من حاجات الأديان ـ ذات الرسائل السماوية أو الالهية على الخصوص ـ الأكثر الحاحا، من جهة لأن صوت التبشير الايديولوجي القوي جدا قد يخنق صوتها، ومن جهة أخرى لأن فسحة الحضارة التكنولوجية، في أحسن الحالات، حيادية، صماء، لا مكان فيها لله ولأي قوة تفوق الطبيعة. واذا ما دفعنا بفسحة الحضارة التكنولوجية المبرمجة الى أقصى حدودها، نجدها تستبعد الكلام، الهيا كان أم طبيعيا، لتحل محله جملة رموز تستخدمها آليا الأدمغة الالكترونية والآلات المؤتمتة.

هذا هو عالم الارض الذي بشر به نيتشه وحذر يسوع منه ميرنا في قوله:

«ابنتي، لا تضطربي من الارضيات» (٢٦/١١/١٩٨٦). العالم الذي أعلن فيه نيتشه عن سقوط السماء وموت الله (هكذا تكلم زرادشت). وموت الله استدعى موت الانسان!

والحق أن عالم الآلة المسفسطة والمؤتمتة ليس ضد الله ولا معه، بل لا مكان فيه لأي ايمان ديني، لأي قوة فوق الطبيعة، ولا للانسان لأنه في حده الأقصى مغلق على ذاته، مكتف بذاته. أولا يمكن للآلة المؤتمتة أن تصلح ذاتها في أغلب حالات الخلل الذي يطرأ عليها، وللدماغ الالكتروني أن يصحح العدد الأكبر من أخطائه؟ فحال الانسان فيه كحال الساحر المتمرّن، في الاسطورة المعروفة، الذي أخرج المارد من قمقمه، وخنقه المارد لأنه عجز عن اعادته الى سجنه ؟ أو كحال دودة القزّ، تنسج الشرنقة لتموت فيها... والانسان في كل الاحوال، خادم الآلة التي صارت غاية بذاتها، وليس سيدها. لكأنه معبد الصنم الذي افتعله. وبالفعل فان عالم الآلة يستهوي الشباب اليوم الذين يقبلون عليه بنهم غريب لأسباب لا مجال لذكرها هنا. والآلة تلتهمهم، أقصد أنها تضعف فيهم العاطفة الانسانية وحسن المبادهة. ولذا فهدف التربية، في الدول المتقدمة، أكانت تربية مدرسية أم خارج المدرسة، هي انقاذ الانسان بالدرجة الاولى بحيث يستمر في سيطرته على العلم، على التقنية وبالتالي على عالمه. والتبشير الديني اليوم، من جهته، عكسه بالأمس القريب والبعيد. فهدف التبشير الديني أو التربية الدينية ـ والاثنان هنا واحد ـ هو اعادة الله الى العالم والانسان الى ذاته، أو اذا شئت، شق فسحة يمكن أن يتجلى فيها الله

تعالى، هو أو أحد أوليائه، وتعود الى الانسان، مع الله، انسانيته المفقودة. والصوفانية واحدة من هذه الفسحات الواعدة. وهذا ما جعل الأم القديسة تربط بين التبشير والمصير الابدي، في أوّل رسالة من رسائل الصوفانية.

«من بشر خلص»

فالتبشير فريضة على المؤمن. وقديما صرخ القديس بولس:

«الويل لي ان لم أبشر»

وتبدل الهدف يستدعي تبدل الطرق المؤدية اليه.

واذا كان الهدف هو اعادة الله الى الانسان، والانسان الى الله، أو أيضا اذا كان الانسان لا يعود الى ذاته إلا بالعودة الى الله، أو اذا شئت وفي الحد الأدنى، باستعادة المعاني الكبرى الناظمة لوجوده، والتي هي من مقومات الايمان بالله وهي المحبة والرحمة، التسامح والمساواة بين الناس، أية كانت مراتبهم الاجتماعية وثروتهم، السلام والعدالة، حرية الانسان والتحرير من الأصنام المتكاثرة اليوم أكثر من أي يوم مضى، منها الايديولوجيات والاستهلاك والمتع الجسدية...

فلم يعد ثمة مسوّغ للتنافس بين الأديان ولا لاستخدام العنف، أيا كان نوعه، لاحلال دين محل غيره على اعتباره الأصح. فالعنف، ان لم يكن مشروعا كحرب التحرير مثلا، فهو وبال على الذين يستخدمونه وعلى الذين يقع عليهم، سواء بسواء.

وبتعبير آخر فان التبشير السابق كان بمعنى ما نزاعا بين اله واله، سرعان ما يدفع به الى أقصى حدوده فيصبح نزاعا مسلحا لا هوادة فيه، فحرب الحق مع الباطل هو حيث منطق الكل أو لا شيء.

أما حيث الاله واحد، خالق من العدم، على كل شيء قدير، وقد كتب على نفسه الرحمة، فثمة خط آخر وطريق مختلفة جذريا عن السابقة تستلزم ايضا التضحية من أجل غير المؤمنين. وبالفعل فقد كان التبشير في السابق مرتبطا بلغة، بثقافة، بدولة، بسياسة، بايديولوجية... ما عداها خطأ يجب أن يستأصل ويزول.

أهي في طريقها الى الزوال هذه النظرة وحيدة الخط؟ بلى فيما يبدو لي. وبزوالها يعود الانسان الى الخط الذي يدفع بالتسامح الى حده الأقصى. وهو خط

منبثق من معنى الاله الواحد الذي كتب الرحمة على نفسه، وملازم له: «أحبوا أعداءكم وأحسنوا الى مبغضيكم». لقد تأرجحت الأديان قرونا وقرونا بين الخطين المتعارضين: أحيانا تتذكر الكلام الالهي الأول، الذي هو فوق الزمان والمكان فتسامح، وتتوب اليه تعالى، وأحيانا أخرى تقرأ هذا الكلام من خلال أعراف الجماعة وأحقادها، غرائزها وارادة البطش القائمة في كل منا، فردا وجماعة، فتتحارب ويسطو بعضها الأقوى على بعضها الأضعف. وفي أغلب الحالات يختلط في تفسيرها للنصوص الالهية الخطان، كل منهما بالآخر... فالايمان الالهي سياسة انسانية عدوانية مع الأسف وحسب. ولكن البشرية تدرك اليوم أكثر، مع تقدم آلة الحرب، أنها إذا استمرت فئاتها السياسية أو الاقتصادية، الدينية أو الثقافية، في تجاهل بعضها، وفي اثارة الفتن والحروب، من أجل مكاسب تجارية أو مالية أو سياسية... فستدمر ذاتها وكل ما حققت من تقدم حتى اليوم، وهو هائل.

ان وضع الايمان بالاله الواحد في الحضارة التكنولوجية المبرمجة الشديدة التعقيد هو الذي يفسر لنا ثلاثة جوانب من حركة الصوفانية ورسائلها، تبدو غريبة للوهلة الأولى.

أولاها، الدعوة الصريحة والملحة الى التبشير. فلأول مرة منذ زمن طويل في تاريخ الظهورات ـ ظهورات العذراء مريم أو ابنها يسوع أو أحد القديسين ـ يجري التأكيد والتشديد على التبشير، حتى لكأن ثمة عودة ترتسم في الأفق، عودة الى زمن رسل يسوع عندما قال لهم: «اذهبوا وتلمذوا كل الأمم»

ثانيها، أن يتوجه هذا الطلب الى زوجة شابة خجولة تجهل أبسط مبادىء دينها، والى جماعة صلاة التفت حول الزوجة الشابة للصلاة وحسب، ولا تملك هذه الجماعة أية وسيلة من وسائل التبشير.

ثالثا، ان الدعوة تبدو في نصها الحرفي للوهلة الأولى وكأنها تسقط في الفراغ. فيسوع مثلا يقول لميرنا في آخر رسالة الخيار الحاسم (١٩٨٥/١١/٢٦):

« اذهبي الى الأرض التي عمّ فيها الفساد...»

وماذا بعد؟ هذه العبارة البسيطة:

« كوني بسلام الله.»

عندما يقرأ المرء هذه العبارات يقف متسائلا:

أو يمكن لهذه الشابة التي لا تعرف حقا من العالم سوى حيّها، أن تذهب الى العالم. بأية وسيلة؟ وماذا ستقول لأناس يفوقونها علما وخبرة؟

واذا كان الفساد قد عمّ العالم، فكيف تستطيع شابة لا حول لها ولا طول، أن تقاومه؟ ان الولايات المتحدة الامريكية بعدتها وعديدها عجزت حتى الآن عن مقاومة جانب واحد من جوانب الفساد يفتك بأبنائها هو المخدرات.

يمكن لله تعالى أن يوقف الفساد المعمم بمعجزة منه. أما السلام، فما حيلته أمام عاصفة هوجاء؟

ولكن العالم أتى ويأتي الى الصوفانية. والصوفانية ذهبت وتذهب الى العالم مع ميرنا ـ وغيرها. فالذين يتجشمون عناء السفر من أطراف العالم الأربعة، عرباً وغرباء، بالعشرات كل عام، منهم من يأتون متفرجين ويعودون مهتدين. وغيرهم يأتون مصلين، فيحملون معهم ايقونات العذراء وقطناً مغمساً بالزيت الذي رأوه يسيل من الايقونة أو من جسد ميرنا... بعضهم يأتي للدراسة والبعض الآخر للتدين بالظهورات العجائبية. هذا يعود بمقالات صحفية مع الصور، وذاك بفيلم تلفزيوني. وكلهم يطلبون مقابلة ميرنا والتحدث اليها، وميرنا تجيب على الغالب وعيناهافي الأرض:

«أنا لا شيء»

وتشير الى احدى الايقونات المعلقة على جدران الباحة. واذا ألحوا بالسؤال طلبت من الأب معلولي أو الأب زحلاوي أن يجيب عنها. وقد تروي أحياناًسيرتها مع العذراء بايجاز كامل وبعبارات بسيطة جداً. ولكن الله كثيراً ما يجيب عنها اذ يوجهها نحو الأم القديسة، فيندفع السائل وراءها وتبدأ الصلاة وكثيراً ما يتدفق الزيت من يديها ووجهها...

وما تزال في بداية الطريق...

لا أعتقد أن ميرنا طرحت يوماً على ذاتها أسئلة ذات صياغات كلامية محددة كالتي أطرحها هنا... كأن تقول مثلاً: ما التبشير؟ ما المبشر؟ كيف يبشر وأين؟ من الذي يعيله عندما يسافر للبشارة؟... قد يرتسم في ذهنها سؤال يبدو لها بصورة

ارباك وحيرة، فتهرع الى الايقونة تصلي، وما تزال حتى تشعر بأن سلام الله عاد الى قلبها... أو لم تقل لها الام العذراء وللمصلين، في احدى أوائل رسائلها (٢٤ آذار ١٩٨٣):

«لا تخافوا فأنا معكم»

ثم طمأنتها هي اذ قالت لها (٢٨ تشرين الاول ١٩٨٣):

«لا تخافي فهذا كله كي يتمجد اسم الله.»

ويسوع (٣١ ايار ١٩٨٤):

« لا تحطمك الأتعاب التي باشرتها من أجلي،
بل افرحي».

ويكاد يسوع يطمئن ميرنا في كل رسالة من رسائلها. ويسوع في رسالة (٧ أيلول ١٩٨٨):

« اذهبي وبشّري
واينما كنتِ فأنا معك»

وتذهب ميرنا، دونما تردد أو وجل، الى أي مكان يدعونها اليه، يرافقها زوجها، في سوريا، في مصر، الوطن العربي، البلاد الأجنبية، والرحلة المقبلة ستكون، ان شاء الله الى المانيا ففرنسا.

الله ناصري فممن أخاف؟
الله حصن حياتي فممن أخشى؟

وتلك بشارتها: أن تصلي:

صلوا، صلوا، صلوا،

أن تعيش في سلام الله.

ويتوجه اليها يسوع الحلو بهذا الكلام الحلو، في انخطاف معاد (١٠ تشرين الأول ١٩٨٨) فيقول:

« ابنتي ماري
لماذا تخافين وأنا معك؟
عليك أن تتكلمي وبصوت عال بكلمة الحق عن الذي خلقك لتظهر قوتي فيك».

لا بل ان يسوعا يذهب الى أبعد من ذلك اذ يقول في رسالة انخطاف ١٩٨٨/١١/٢٦ ـ ذكرى الصوفانية السادسة):

« أما أنت يا ابنتي،
سأتركك
لا تخافي اذا طال عليك سماع صوتي.
بل كوني قوية.
ولسانك سيف ينطق باسمي
تأكدي أني معك ومعكم جميعاً.»

وما عساها تقول صبية صوتها خافت وحجتها ضعيفة؟ ولكن الله أسقط حجة الحكماء، أذلهم، أخرسهم، وأحل محلهم الطفولة وبراءتها. والبراءة هبة من لدنه تعالى.

وليس معنى هذا أن الله يكره الشعر والأدب، والعلم والفلسفة، المنطق والبلاغة... المسألة ليست مسألة جنس كلامي، ولا مسألة سن المتكلم، بل مسألة الخيار الحاسم: الله أو العالم. فعندما نُسكِتُ العالم، نطرده، يتحدث الله الينا. ويلاحظ المتتبع، جزئياً أو كلياً، لأخبار الصوفانية وأحداثها، أكانت في دمشق أو في البلاد النائية، أنه اين وأنى وجدت ميرنا فثمة الصلاة، يأتي اليها الناس عفوياً لمجرد سماعهم أن ميرنا هناك. وترافق على الغالب الصلاة آية الله في ميرنا وهي الزيت المقدس.

وبالصلاة تبشر ميرنا وتحقق طلب يسوع ١٩٨٦/١١/٢٦:

« قولي لأبنائي أن يأتوا الي في كل ساعة
وليس عندما أجدد عيد أمي
فأنا معهم في كل وقت»

تلك رسالة ميرنا:

«لا تكرهي أحداً... أحبي الجميع»

أعلنها يسوع لها، للمصلين في الصوفانية، لجميع الناس (١٩٨٧/١١/٢٦):

«لا تكرهي أحداً فيعمى قلبك عن حبي
أحبي الجميع كما أحببتني، وخصوصاً الذين أبغضوك وتكلموا عليك.
فعن طريقهم تكتسبين المجد
بذلك تخلصين نفوساً معذبة»

وأيضاً في رسالة لوس انجيليس ١٩٨٩/٨/١٨:

«لا يهمك ما يقال عنك.
بل كوني دائماً بسلام
لأن الخليقة تنظر الي من خلالك.»

انها رسالة المحبة المعممة. بها وبالصلاة، يمكن للانسان أن يردد مع النبي صموئيل:

«تكلم يا رب فان عبدك يسمع»

بها ندخل في حوار مع الله تعالى، مع ذواتنا، مع الناس.

ثلاث مسائل

ثلاث مسائل تستوقف قارىء رسائل الصوفانية وتدفعه الى التأمل: أولاها تجنب الأم القديسة وابنها مسيح الله كل ادانة. وهذا واضح منذ الرسالة الأولى. فعندما تبدو العبارة وكأنها تسير نحو الادانة، يحرفها صاحب الرسالة أو ينقلها من مستوى في التقدير الى آخر أضعف من الأول. مثلاً تعلن الأم القديسة في رسالتها الأولى: «بشروا بابني عمانوئيل». ثم تضيف: «من بشر خلص». والذي لا يبشر ما حكمه؟ ليس هالكا، بل «ايمانه باطل». هذه البداية السموحة ترتكس على كل العبارات ــ وما أكثرها في الرسائل ــ التي تجعل من التبشير واجباً على كل مؤمن. واذا تذكرنا أن التبشير هو السلام الداخلي، الصلاة، خدمة القريب... وبالنتيجة

القدوة الحسنة، ندرك كم أنه من السهل، مبدئياً، على المتكبر الفاسد أن يتوب ويبشر فيخلص.

المثال الثاني، نجده في عبارة ذكرتها سابقاً، ترد مرتين في رسائل الأم القديسة، ومرتين في رسائل ابنها مسيح الله، وهي:

«الكنيسة هي ملكوت السماوات على الارض». أي ملكوت الله. والله واحد، اذا الكنيسة واحدة. فما يجب أن يكون حكم الذي يقسمها أو يفرح بتقسيمها، أي الذي يعتدي على مؤسسة تمثل الله على الأرض أو تجسده؟ أليس الهلاك الأبدي منطقيا؟ ولكن منطق الله تعالى هو الرحمة والتسامح. ولهذا تلي الاعلان الأول عبارة «من قسمها أو فرح بتقسيمها فقد أخطأ»، والخطأ أخف بكثير من الخطيئة. ومرة واحدة ترد كلمة قاسية بهذا الشأن ونجدها في رسالة العذراء (٢٤ آذار ١٩٨٣) «من قسمها ليس فيه محبة».

العبارة الوحيدة القاسية، نصاً وروحاً، ترد في احدى أوائل الرسائل (٢١ شباط ١٩٨٣) بخصوص المتكبر الفاسد الذي يثور ويعادي عندما تنبهه الى خلل في سلوكه، بعكس المتواضع السموح الذي يسرّ بكل ملاحظة تبديها له. ومع ذلك فالرسالة ذاتها تقول في عبارتها الثانية:

«لا تشتموا المتكبرين»

ولهذا فان رؤية رسائل الصوفانية للانسان تذكرني برؤية الأناجيل له. فيسوع الاناجيل لا يدين الاّ اذا أحرج. واذا التقى الخاطىء ــ وكثيرا ما يلقاه ــ فهو يغفر له. أو لم يكن يؤثر مخالطة العشارين والخطأة والاشتراك في ولائمهم، على مخالطة الكتبة والفريسيين؟

ان رسالة الصوفانية، كما تبدو لي حتى اليوم، هي رسالة يسوع مسيح الله، أقصد المحبة المعممة:

«أحبَّت كثيراً فَغُفِر لها كثيراً».

المسألة الثانية التي تسترعي الأنتباه في رسائل الصوفانية هي الاقلال الى أدنى حد ممكن من ذكر العقائد أو التشديد عليها. فهي دائماً خلافية بين اللاهوتيين. وقل أن تثير خلافاً عقائدياً، من أي نوع كان، ولم تكن له ارتكاسات اجتماعية

وسياسية وحتى اقتصادية، وتلك كانت سنّة يسوع الأناجيل في بشارته: يشير الى العقيدة وينتقل منها الى ما أسميه «أبعاد الايمان» أو «مكونات المؤمن» وأقصد: التوبة، التسامح، الخدمة، المحبة، الصلاة، الفرح... والواقع أني لم أقع في الرسائل الاّ على ثلاث عقائد مذكورة نصاً، تتفق عليها كل الطوائف المسيحية، على ما أعلم.

أولها عقيدة الثالوث الأقدس

ففي رسالة ٢١ شباط ١٩٨٣، تطلب الأم القديسة من المصلين أن يرددوا باستمرار هذه العبارة:

«الله يخلصني. يسوع ينورني. الروح القدس حياتي. فأنا لا أخاف...»

يؤكد هذا الاعلان يسوع في رسالة ٧ أيلول ١٩٨٥ عشية عيد ولادة العذراء:

« افرحوا لفرح السماء، لأن ابنة الآب وأم الاله وعروس الروح ولدت.
ابتهجوا لابتهاج الأرض لأن خلاصكم قد تحقق»

الثانية، عقيدة ألوهية المسيح.

هو نفسه يؤكدها في بداية رسالته الأولى (٣١ أيار ١٩٨٤)

« أنا البداية والنهاية
أنا الحق والحرية والسلام
سلامي أعطيكم.»

والحق أن هذه الرسالة ــ الصلاة مركزة كلها حول ألوهية يسوع التي يعيد تأكيدها بشكل صريح في رسالة ٧ أيلول ١٩٨٥

«أنا الخالق»

وأيضاً في رسالة ١٩٨٦/١١/٢٦

«مغفورة لكم زلاتكم»

ومغفرة الخطايا خاصة أساسية من خصائص الأناجيل، تجعل منها انجيلاً واحداً انجيل السلام والمحبة. حتى لكأن قوة يسوع مسيح الله في تواضعه وضعفه. «قوتي في الضعف تظهر» يقول للقديس بولس. وتقابل هذه اللهجة السموح في الانجيل، لهجة أخرى يؤكد فيها مسيح الله قدرته اللامتناهية أو الالهية «مغفورة لك خطاياك،

قم احمل سريرك وامش» أو «قيل لكم... وأنا أقول...». وهذا ما يشير اليه مستمعو يسوع في تلك الايام، عندما كانوا يقولون: ليس كالفريسيين... انه يتكلم بسلطان... واللهجتان واضحتان في رسائل الصوفانية. فيسوع يقول لميرنا: «ضمي قلبي الى قلبك الرقيق» كما يقول لها جازما «اذهبي وبشّري». ويتوجه الى المصلين والمؤمنين بلا تردد: أريد، أطلب، اعملوا... كما يؤكد أنه الفادي والمخلص.

«أنا صلبت حبا بكم» (رسالة الاختيار الحاسم ١٩٨٥/١١/٢٦).

العقيدة الثالثة التي تؤكدها رسائل الصوفانية هي عقيدة «الكنيسة، ملكوت السماوات على الارض» أي تجسيد الله على الأرض.

«والكلمة صار جسدا وسكن بيننا»

وهي واحدة لأن الله الذي تعبر عنه بشكل مرئي واحد «لا شريك له»

والكنيسة ليست بالدرجة الأولى المؤسسة الاجتماعية، كما نتعامل معها، عفويا ولا شعوريا، نحن البشر، في أغلب تصرفاتنا، فنساوي بينها وبين الدولة والمدرسة والحزب... ولا طبعاً البناء الذي نقصده للصلاة، وان كانت المؤسسة والبناء من مستلزماتها، بل هي أولاً وأخيراً نحن، مجموع الذين نؤمن بالاله الواحد «لا شريك له...»

من الطبيعي ان يضع كل دين شروطاً للانتماء اليه. فالمسيحي من اعتمد وآمن بالآب والابن والروح القدس. ولكن أليس الله تعالى الذي خلقنا كلنا من العدم لنعبده فنصير أبناء له، أعبدناه بهذه الصيغة الكلامية أم بتلك؟ أنا لا أستبعد من الكنيسة أو بالأحرى من بنوّة الله حتى الملحد. فقد يكون هذا بأعماله الخيّرة أقرب الى الله من عشرات وألوف المؤمنين اسماً، وفعلاً هم من الملحدين. وحده الشرير الذي يصرّ على الشرّ ويرفض أن يتوب الى ربه، مستبعد من بنوّة الله. ولكن أيحق لي أن أحدد هذا الانسان بالاسم؟ أبدا. واذا فعلت فأنا الشرير. الله وحده الذي يعلم السر وما يخفي، يميّز بين الصالح والطالح.

هذه السمة الكريمة ـ الشمولية كما يقول بعضهم ـ أو الانسانية للايمان، هي التي تشدد عليها رسائل الصوفانية. اذ تعلق المؤسسة لترى الوحدة في القلب الانساني، أي في هذه اللحمة العاطفية ـ العقلية التي تشدّ البشر الى بعضهم وتجعل منهم كلهم عيال الله، فلا تؤكد من العقائد والقضايا العقائدية الأ الأساسي

جدا والمتفق عليه بين كل الفرق والطوائف المسيحية. ما من شك في أن الوحدة، دينية كانت أم ثقافية، سياسية أم اقتصادية أو اجتماعية...، لا تأخذ شكلها النهائي الأكمل الا في المؤسسة. ووحدة البشر ستكون، اذا يوما تحققت، في وحدة مؤسساتهم. ولكن، وبالمقابل، فان المؤسسة، لا تقوم وترسخ وتستمر الا اذا استندت الى وحدة القلوب.

وربما أن صدق حركة الصوفانية أو أحد أهدافها الرئيسية هو انشاء نواة صلاة قابلة للانتشار والتوسع، تقرب بين المؤمنين وتوحد قلوبهم.

أما انتظار الوحدة من اللقاءات الرسمية بين الشخصيات المرموقة، ندوات المتخصصين، مناقشات أو بالأحرى مبارزات اللاهوتيين... فهو وانتظار غودوت سواء بسواء. يكفي أن نتذكر خلفية الانشقاقات السياسية ـ الاقتصادية وحجمها الهائل، سوء التفاهم والفهم ـ الناجم عن الندوات الثقافية واللغوية، الحرص المرضي على المناصب وأبهتها والذي يخفيه تواضع قد يكون حقيقياً أو مفتعلاً أو الاثنين معاً ـ ناهيك عن العقد الاجتماعية ـ النفسية. وأن نتذكر أن الخلافات هذه مستمرة بحرفيتها، وأنا نؤجّج لهيبها ببلاغاتنا الخطابية... حتى نيأس من عودة الوحدة...

... وطريق الله تعالى، كما يعلمنا سلوك السيد المسيح، كانت وما تزال وستبقى في الشعب، من الشعب والى الشعب. وعندما يمشي الشعب تلحق الرتب والمراتب.

والتوجه الى الشعب واضح منذ رسالة العذراء (٢٤ اذار ١٩٨٣)

«لا تفرّقوا مثل تفرّق الكبار

أنتم ستعلمون الأجيال كلمة الوحدة والمحبة والايمان».

وتبدأ الدعوة الى وحدة الكنيسة في وحدة قلب الشعب الذي يصلي مع رسالة ١٤ آب ١٩٨٥

«عيدي أن أراكم مجتمعين.

عيدي صلاتكم

عيدي ايمانكم

عيدي اتحاد قلوبكم»

ويسوع في رسالة ١٩٨٦/١١/٢٦

«فأعطيكم قلبي لأمتلك قلبكم»

ويؤكد يسوع في رسالة لوس انجيليس ١٤ آب ١٩٨٨ وحدة الكنيسة في وحدة القلوب:

«أنتم كنيستي
وقلبكم ملك لي»

كما يؤكد يسوع في رسالة ٧ أيلول ١٩٨٨ ضرورة عمل الشعب المصلي من أجل وحدتكم أو اتحاد قلوبكم:

«قولي لأبنائي بأني أطلب منهم الوحدة»

ويكشف يسوع في رسالة ١٩٨٨/١١/٢٦ عن أن موقع الوحدة المستمر والأرسخ ليس الانسان وليس هو ذاته، بل وجوده فينا. وهذا يدلنا بوضوح على طريق الانشقاقات والانحرافات والخطايا كلها، وهو انا نعطي ذاتنا كلها للعالم متناسين وناسين الوجود الالهي فينا. ويستخلص ما يترتب على ذلك من نتائج في قوله:

«صلوا من أجل الذين نسوا وعدهم لي
لأنهم سيقولون لماذا لم أشعر بك يا رب وأنت كنت معي؟
كل ما أريده هو أن تجتمعوا كلكم فيّ،
كما أنا في كل واحد منكم.»

فحركة الصوفانية هي اذا سيرورة صلاة ومحبة للجميع... وتوحيد لقلوب المؤمنين، وهي تبلغ احدى قممها في احدى الرسائل الأخيرة التي وصلتنا حتى اليوم من الام القديسة (انخطاف ١٩٨٩/١١/٢٦) المكرسة للوحدة والسلام:

«قال يسوع لبطرس:
أنت الصخرة وعليها سأبني كنيستي.
واقول أنا الآن: أنتم القلب الذي فيه سيبني يسوع وحدانيته.
أريد أن تخصصوا صلواتكم من أجل السلام، من الآن حتى ذكرى القيامة.»

قلت: ان التركيز في حركة الصوفانية وفي الرسائل التي ترسم لها مسارها، ليس على العقائد الدينية، بل على الأساس الذي تقوم عليه هذه العقائد والذي لا وجود

لها بدونه، أقصد القلب الذي يحل فيه الله، أو بالأحرى، القلب الذي ينفتح لله، فيتعرف اليه لأنه موجود فيه من الأصل. التركيز بتعبير آخر هو على أبعاد فعل الايمان أو على مكوّنات القلب المؤمن. وتشدّد رسائل الصوفانية على ست منها:

أولها، التوبة التي هي عودة الابن الشاطر الى بيت أبيه (انجيل لوقا) أو عودة الانسان الخاطىء ـ وكلنا خاطىء ـ الى الله. «توبوا» تقول الأم القديسة في رسالتها الأولى.

ومن ثم الصلاة أو الذكر. وكل صلاة ذكر. وبها تبدأ أولى رسائل الصوفانية وهي للأم القديسة التي تقول:

«أبنائي، اذكروا الله لأن الله معنا.»

وقد سبق وقلت، ان رسائل الصوفانية لا تبرح تشدّد بشكل أو بآخر على ضرورة الصلاة. فمنها تنبثق مكوّنات حركة الصوفانية واليها ترتد.

صلوا، صلوا، صلوا. (رسالة ٢٤ تموز ١٩٨٧ ـ معاد)

ويشرح يسوع مفعول الصلاة في رسالة ١٩٨٦/١١/٢٦ فيقول:

«كل كلمة صلاة أسكب فيها قطرة من دمي على أحد الخطأة»

والصلاة المستمرة في عالم كعالمنا، مضطرب، سريع التبدل، مشبع بمشكلات تستأثر بكلية الانسان وبكل انسان... هي السبيل الوحيد الى السلام الداخلي فالصفاء النفسي واللقاء مع الله، حيث تتحقق المصالحة بين البشر في المصالحة مع الله، فثمة السلام الذي يعم البشرية، دولاً وشعوباً وأمماً.

ثالثاً، الايمان الذي هو الحياة مع الله، أو بالأحرى التطلع المستمر، النزوع الدائم الى حياة مع الله وفي الله. «توبوا وآمنوا واذكروني في سروركم»، تقول العذراء مريم دوماً في رسالتها الأولى، وهي تخصص «السرور» لأن الانسان لا يذكر الله الاّ في الشدة أو عندما يصيبه ألم شديد. وكثيراً ما ترد كلمة «ايمان» أو ما هو بمعناها في رسائل يسوع: «صلوا بايمان». وفعل الايمان هو فعل وجود.

وكذلك كلمة «سلام» ـ البعد الرابع ـ ولكن ما السلام الذي يشير اليه يسوع في عبارته المعروفة التي يوجهها الى رسله في انجيل يوحنا «سلامي أعطيكم»؟ وأيضاً الى مصلي الصوفانية في رسالة لوس انجيليس (١٤ آب ١٩٨٨):

«أبنائي، سلامي أعطيتكم»؟

ان فيه فائضاً عن التوازن الداخلي وعن الاتكال على الله والاستسلام لمشيئته تعالى. ولا أرى مقابلاً له الاّ في «السكينة» التي ينزلها الله على المقربين اليه، كما جاء في القرآن الكريم. كلنا في الطريق الى هذه السكينة أو هذا السلام. والسكينة بذاتها قمة من قمم الحياة الروحية يرفع اليها الله تعالى من يختاره. انها هبة مجانية من لدنه.

البعد الخامس هو المحبة

«وأحبوا بعضكم بعضاً» يقول يسوع للمصلين في رسالة ٢٨ أيار ١٩٨٧، ولميرنا في رسالة ١٩٨٧/١١/٢٦

«لا تكرهي أحداً، فيعمى قلبك عن حبي.
أحبي الجميع، كما أحببتني، وخصوصاً الذين أبغضوك وتكلموا عليك، فعن طريقهم تكتسبين المجد
وتخلصين نفوسا معذبة.»

بهذا نعرف، نحن البشر، أنا نحب الآخر: أن ينفتح قلبنا له ونخدمه أو نكون دوماً مستعدين لخدمته. فما بالك بالفائض الذي يضيفه الله تعالى الى هذه المحبة فتصير فداء. والحق أن في كل خدمة، أية كانت، بعضاً من فداء. في المحبة، يصير القريب ممثلاً لله بالنسبة اليك. فالمحبة، أن أتقمص الآخر وأتلاشى فيه أو في الله، سيّان. فالمحبة كالسلام هبة مجانية من لدنه تعالى، وما على الانسان الاّ أن يسير، ينوي السير في هذه الطريق، وعليه تعالى الباقي.

بهذا تكون المحبة طريق الخلاص، خلاصي وخلاص الآخر، كما يقول يسوع لميرنا.

وأخيراً الوحدة، وحدة الأمة، وحدة الصف، وحدة القلوب... وحدة الكنيسة، وحدة المؤمنين، وحدة البشر... ليست عقيدة وحسب، بل ايضاً، وقبل ذلك، حياة خدمة، عطاء ومحبة للفرد وللجماعة... بهذا تكون بعداً من أبعاد فعل الايمان، وخاصة من الحقائق المميزة للانسان بوصفه مؤمناً بفطرته. وبتحقيقها، نحقق ارادة الله فينا، وندرك، جزئياً، كيف أنا، نحن المؤمنين، نحن بني البشر، واحد في الاله الواحد، لا شريك له.

المسألة الثالثة التي تسترعي الانتباه في حركة الصوفانية ورسائلها، هي اختيار ميرنا والصوفانية، هذه كاسم وتلك كرائدة.

هذا الاختيار قرار الهي، جسدته الأم القديسة يوم ١٩٨٢/١١/٢٧ بالزيت الذي انبثق ـ وما برح ـ من ايقونتها. واذ لبى الناس النداء وتجمعوا للصلاة فصار تقليداً، بدأت الظهورات، الانخطافات، الشفاءات والرسائل بعد حوالي نصف شهر. ففي ١٩٨٤/١٢/١٨ أملت الأم القديسة رسالتها الأولى على ميرنا. وفيها تقول:

« أعطيتكم زيتاً أكثر مما طلبتم...
وسأعطيكم ما هو أقوى من الزيت بكثير»

ما «الأقوى» في العبارة الأخيرة؟ أهو المزيد من زيارة الأم القديسة للبيوت، كما تقول بعد أسطر من الرسالة ذاتها؟ أم وعد بعمانوئيل الذي عليهم أن يبشروا به، كما جاء أيضاً في الرسالة ذاتها؟ أم مزيد من الرسائل والصلات بين الله وعباده؟

في الذكرى الرابعة لبداية الحركة يثبت يسوع اختيار الصوفانية:

« أبنائي، ما أجمل هذا المكان، فيه سأنشىء ملكي وسلامي
فأعطيكم قلبي لأمتلك قَلْبَكم.»

في هذه الرسالة، كما في الرسائل السابقة واللاحقة، يؤكد يسوع بعد أمه، على أن الصوفانية ليست كنيسة، بل حركة توبة، صلاة، سلام وتوحيد للقلوب في الصلاة، أو حركة عودة الى الله. ولكن ما هي الصوفانية؟ وما الجميل فيها؟ أهذا البيت العائلي؟ أم الموقع؟ أم الحي؟ لا. أبداً... فليس ملكوت الله في مكان، ليس في المكان، انما في القلوب. والقلوب العائدة الى الله ـ والجميلة لأنها عائدة ـ في كل مكان وفي كل زمان. فعلام تحمل الحركة اذا اسم «الصوفانية»؟ لأنها انطلقت وتنطلق منها، ومنها تنتشر في العالم بشكل تجمعات للصلاة. وحيث تبدأ الصلاة، غالباً ما يؤكد الله تعالى قبوله صلاة المصلين بزيت يتدفّق من صورة لصور سيدة الصوفانية. ولأن التي اختارها الله لتبدأ حركة الصلاة هذه في غرفتها وقلبها، تسكن في بيت عادي وحيّ عتيق، صارا جميلين بفضل الصلاة المستمرة

التي تجعل قلوب المصلين على صلة مع القلب الالهي.

وبعد حوالي تسعة أشهر ونصف من تأكيد يسوع لاختيار الصوفانية، يؤكد يسوع أيضاً اختيار أمّه لميرنا منذ يوم ٤ تشرين الثاني ١٩٨٣. ففي رسالة ذلك اليوم تقول الأم القديسة لميرنا:

«انزلي وقولي لهم انك ابنتي قبل أن تكوني ابنتهم.»

كان يسوع قد بدأ الرسالة الأولى (٣١ أيار ١٩٨٤) التي أملاها على ميرنا بكلمة «ابنتي» ليدلل على أنها خاصته، قبل أن يسمعها صوته أو يريها ذاته. وفي هذه الرسالة يعلمها الصلاة التي سأوردها عما قريب، والتي ستكون يوماً، على ما أرى، في نقطة المحور من روحانية الصوفانية. وتأتي رسالة الخيار الحاسم بعد حوالي سنة وأربعة أشهر، ثم رسالة تأكيد اختيار الصوفانية التي ذكرتها للتوّ، بعد سنة. وبعد هذا التأكيد بأقل من سنة، يؤكد يسوع اختياره لميرنا، رسالة (١٩٨٧/٩/٧) وقد صار ناجزاً.

«ماري، أنت التي اخترتها...»

ثم يعدّ بعضاً من صفات مميزة لها: هدوءها، قلبها المملوء حباً وعطفاً والرقيق، كما سيقول في الرسالة التالية (١٩٨٧/١١/٢٦). هذه الصفات المحببة الى قلب يسوع «الوديع والمتواضع القلب» ليست سبب الاختيار، بل من متمماته ونتائجه. أما الاختيار فقرار الهي يتجاوز الأسباب والمسوغات كلها. ولكن علام يضيف يسوع هذه العبارة التي تبدو غريبة بعد الخيار الحاسم الذي حسم الموقف، أقلّه على صعيد الخيار؟ وفيها يقول: «تبيّن لي أنك لا تقدرين أن تتحمّلي أي شيء من أجلي». ويضيف: «سأعطيك فرصة لتختاري». وأيضاً: «اعرفي أن حمل الصليب لا بدّ منه.» الآن ميرنا ترددت؟ خافت؟ تراجعت؟ أم ليثبتها في الطريق الذي اختاره لها والذي سيكون درب آلام؟

الله وحده يعرف تطورات ميرنا الروحية في السنتين اللتين تفصلان بين الخيار الحاسم ورسالة ١٩٨٧/١١/٢٦، أو بين الانذار الذي يوجهه يسوع الى ميرنا كما رأينا للتوّ، وبين الذكرى الخامسة لبداية حركة الصوفانية (١٩٨٧/١١/٢٦). اذ في هذه الذكرى يقول يسوع لميرنا:

«ابنتي، اني أقدر اختيارك لي. ولكن ليس بالقول فقط»

ويبدو لي من قراءة الرسائل أكثر من مرة، أن ميرنا أدركت طوال الست سنوات الأولى من حياة الصوفانية ـ وكانت فترة صلاة وصوم وتقشف، ـ وفترة حوار مع الأم القديسة، مع يسوع، مسيح الرب، مع المصلين، مع الناس، مع ذاتها... وبعد أن كشف لها بوضوح، كلامياً وعملياً، عن الدرب التي عليها أن تجتازها، اي لا أكثر ولا أقل من درب الصليب، أدركت أن ما يطلبه منها يسوع يتجاوز كل ما تصورته أثناء صلواتها ويفوق كل طاقاتها، على الخصوص أن يسوعا لم يبعدها قيد أنملة عن العالم. فهي زوجة، ام، صبية في بداية شبابها، قد تذكرها اشارات عابرة من صديقاتها الباقيات حولها، بكل ما ستتخلى عنه، وهو، على ما يبدو، أكثر بكثير مما تخلّت عنه حتى الآن. وقد صارت تعرف بعضاً من آلام الصلب الرهيبة بتجربتها الشخصية، أثناء ظهور جراحات المصلوب على جسدها. وهي اولاً وأخيراً انسان من لحم ودم. انها لا ترفض ما يطلبه منها يسوع، منها بالذات. وهو نفسه، أَلَمْ يَخَفْ عندما رأى الموت صلباً قادماً اليه، فصرخ وعرق الدم يتصبب من كل جسده:

لتعبر عني، يا أبي، هذه الكأس؟

وهي تقول أيضاً مع يسوع:

لتكن مشيئتك، لا مشيئتي، يا أبي.

ولكن... ولكن... الا يحق لها أن تخاف؟ انها تخاف وستبقى خائفة. ويد الرب ثقيلة عندما يضعها على انسان، كما تستخلص الشعوب من تجربتها في سياق الحياة العادية. فما بالك بالحياة الاستثنائية؟

وأخيراً ها هي تقول مرة بعد مرة، وبتصميم أكبر من المرات السابقة:

ها أنذا أمة للرب. فليكن لي بحسب قولك

فيجيبها يسوع في رسالة ١٩٨٧/١١/١٦:

«ابنتي، اني أقدر اختيارك لي. ولكن ليس بالقول فقط».
كل شيء أو لا شيء. ستكونين لي بكليتك وسأقدمك للآب ذبيحة طاهرة...
والاّ تكوني بكليتك للعالم.

يسوع لا يساوم: كل شيء أو لا شيء. وهذا معنى ما قاله وسيقوله «احتقري

نفسك»، ومعنى رسالة ١٨ نيسان ١٩٨٧، يوم سبت النور، التي أتت بعد يومين من ظهور الجراحات للمرة الثالثة، على جسد ميرنا، وهي رسالة أربكت الكل يومها:

« أعطيتكم اشارة لتمجيدي
تابعوا طريقكم وأنا معكم.
والاّ ...»

أو لم يقل يسوع هذا منذ ألفي سنة؟

« جئت لألقي على الأرض ناراً...»

وأيضاً:

« من أحب أباً أو أماً، أختاً أو أخاً... أكثر مني، فلن يستحقني...»

وفي المواقف الحرجة وأمام الخيارات الحاسمة:

« من ليس معي فهو علي»

وتقبل ميرنا (رسالة ١٩٨٧/١١/٢٦) فيواصل يسوع تدريبها:

«استمري في حياتك زوجة وأما وأختا»

ويضيف:

« لا تضايقك المصاعب والأوجاع التي ستأتي اليك. بل أريد أن تقوي عليها، وأنا معك»

ولكنه دوماً يشدّد على الشق الثاني من الخيار:

« والاّ خسرت قلبي»

ويضيف أيضاً:

« اذهبي وبشري...»

ولكن لا تقيسي هذه الأمور بنتائجها. انها بيد ربّ العالمين. فقد لا تأتي الشجرة أكلها هنا الاّ بعد سنوات، بعد أجيال، بعد قرون.

وأيضاً رسالة ١٩٨٨/١١/٢٦:

« لا تقولوا ماذا أفعل؟
فهذا عملي...»

امشوا، ومع كل خطوة ألهمكم التي تلي. بشروا، والنتائج من شأني لا من

شأنكم.

واعلمي، يا ميرنا، اعلموا كلكم أنكم ما تزالون في أول الطريق، حيث العقبات الأبسط والأسهل تذليلاً.

« ابنتي،

لقد قلت لك بأن تقوي على جميع المصاعب

واعلمي بأنه لم يمرّ عليك الاّ القليل منها.»

والخلاصة أن رسائل المرحلة الثالثة من مراحل حركة الصوفانية، هي مرحلة شق الآفاق البعيدة والخيارات الحاسمة. فيسوع وأمه القديسة يدربان ميرنا والمصلين والمؤمنين على السير في هذه الدرب المجهولة. فرسائل المرحلة الثالثة، من هذا القبيل، تعليمية أو رسائل تثبيت أقدام المؤمنين على الطرق المستقيمة.. فمثلاً، يبدو من بعض الرسائل أن ميرنا كانت تخاف، عندما تبتعد عن الصوفانية، حتى لكأن الله تعالى قد زجّها في أماكن مجهولة، وتركها وحيدة تشهد لاسمه القدوس... وها هو يسوع يهرع لطمأنتها:

« ابنتي ماري،

لماذا تخافين وأنا معك؟ عليك أن تتكلمي وبصوت عال بكلمة الحق عن الذي خلقك لتظهر قوتي فيك.»

ويضيف يسوع في نهاية رسالة معاد (١٩٨٨/١٠/١٠) هذه العبارة الواضحة في كشفها عن ارادة الله:

«لا تختاري طريقك، لأني أنا رسمتها لك»

وتضيف الأم القديسة في رسالة لوس أنجلوس (١٩٨٩/٨/١٨) بركة الله العظيم، الى ما تقدّم:

« لا تخافي، يا ابنتي، فهذا كله ليتمجد اسم الله...

بركة الله تحلّ عليك وعلى جميع الذين ساهموا معك لمحبته.»

كانت ميرنا تصلي كثيراً، منذ البداية كانت تستغرق في الصلاة حتى ساعة متأخرة من الليل وأحياناً حتى الفجر، كما فهمت من الكهنة الذين كانوا يصلون معها ومع نفر قليل من الناس. وهي كلما أمعنت في الصلاة تطلب الأم القديسة

المزيد من الصلاة، ويصبح يسوع أكثر الحاحاً في التأكيد على ضرورة الصلاة. والصلاة، كما سبق وقلت، تباعد بين المصلي والعالم، اذ تنشىء في داخل المصلي وحوله، فسحة روحية فيها يعيش مع الله الذي يغفر لنا ذنوبنا. ولكن الصلاة تسلخنا عن العالم. فيسوع يطلب من ميرنا أن تعيش حياتها الطبيعية، زوجة واما وصبية.. وماذا في العالم؟ الصليب. ولكل منا صليبه، في كل يوم لكل منا صليب عليه أن يحمله راضياً مسروراً. ويبدو بوضوح من النصوص التي قرأنا أن صليب ميرنا كان وسيكون أثقل من أي صليب آخر... وقد سمعنا يسوعا يقول لميرنا (رسالة ٧أيلول ١٩٨٨).

« ابنتي، لقد قلت لك بأن تقوي على جميع المصاعب
واعلمي بأنه لم يمرّ عليك الآ القليل منها.»

فالحياة الدنيا صلاة وصليب. والفرح ــ ويسوع يطلب من المؤمن حقاً، في نصوص الصوفانية وفي غيرها التي أملاها في السابق على مختاريه، أن يكون فرحاً ــ الفرح هذا أين هو؟ انه ينبثق من الصلاة ومن الصليب الذي نحمله طواعية مع يسوع.

والعقائد التي يمعن اللاهوتيون في تدبيجها؟ فثمة قضايا أساسية وفروعها، وفروع الفروع، وفروع فروع الفروع... أين هي؟ ما موقعها من حياة المؤمن؟ تقتصر رسائل الصوفانية على الأساسي جداً منها، وعلى الصيغ الأسهل لهذه القضايا. فكأنها تقول للاهوتيين: دعوا هذه الجماعة الفتية تعيش حياتها الروحية عفوياً، وفي صلاة مباشرة مع الأم القديسة. ولا تقحموها في مناقشاتكم البيزنطية التي كانت واحداً من أسباب الفرقة بين فئات شعبي. والعقائد هذه، كما رأينا، تنبثق من الصلاة ذاتها. وفي الصلاة يعيش الانسان الثالوث الأقدس وألوهية المسيح ووحدة الكنيسة.

ولا تضيف رسائل الصوفانية الى الصلوات المألوفة لدى المصلين اليوم الآ ثلاثاً، هي قطع صغيرة: واحدة أملتها الأم القديسة واثنتان ابنها يسوع. صلاة الأم القديسة:

«رسخوا هذه الكلمة في عقولكم ورددوها باستمرار:
« الله يخلصني، يسوع ينوّرني. الروح القدس حياتي، فأنا لا أخاف»

وهذه، وان كانت لا تختلف جوهريا عن مضمون أقوال يسوع، فهي تضعنا في فسحة روحية ــ انسانية، ان صحّ التعبير. في حين تنقلنا صلاة يسوع وأقواله الى فسحة روحية ــ الهية، فيها الانسان حامل صليبه، وقد انتصر على الخوف، فهو في طريقه الى الله يطلب منه العزاء والفرح. وسبحانه يستجيب أو عما قريب سيستجيب.

فالعذراء تبكي ثم تبتسم. العذراء تنصح، توجه، تشجع، وقد تقرر وتفرض قرارها ولكن برفق، تطلب، ترجو دون أن تتراجع. انها حنون وعطوف بحنان الأم وعطفها، وفي الوقت ذاته قوية بقوة الابن الالهي.

«قاسية» قالت لي صبية، عفوياً، عند سماعها الصلاة التي قلت عنها انها تتضمن جوهر روحانية الصوفانية، كما ستتكون في المستقبل. وكان لا بدّ لي من أن أقف عند خط الحكم القاطع، لأني أثق بذوق الصبية، أحترم حساسيتها، وأعترف برجاحة عقلها... قلت: هذا الحكم يجب أن ينسحب على نصوص رسائل يسوع في الصوفانية، جلها ان لم يكن كلها، لأن الصلاة والنصوص يتجاوبان وينتميان الى فسحة واحدة. فما «القاسي» هنا؟ أهي الفسحة الروحية ــ الالهية، كما تبدو في عالمنا الأرضي وقد أعدّت له، والتي يضع يسوع الانسان وجهاً لوجه أمامها، ويطلب منه أن يجتازها كلها بدون تردد ولا خوف، مع أنها غريبة عن طبيعته الانسانية ومنافية لها؟ انها فسحة الصليب التي أخافت يسوعا ذاته، وبعده بولسا الذي طلب المزيد من القوة قبل أن يسلكها، فأجابه يسوع:

« نعمتي تكفيك
قوتي في الضعف تكمل.»

أهي «القاسية» لهجة يسوع التقريرية، الذي لا يتردد، لا يهادن، لا يساوم، بل يؤكد، لأنه واثق من نفسه ومن صحة ما يقول؟ أم كون يسوعا يضع ميرنا ــ ومعها الانسان ــ أمام النقطة التي تلتقي فيها الفسحة الالهية بالفسحة الانسانية، أي الصليب حيث يتم العبور من الثانية الى الأولى؟ ويقول لها ولنا، أن يقبل كل منا صليبه، يحمله طواعية حتى ولو كان سيؤدي به الى الموت. الأقسى، الأصعب تحملاً هو أن الصليب أو الصلب فعل مجاني، أو هو، اذا شئت، امكان من امكانات، احتمال من جملة احتمالات أخرى كثيرة تجعل الصليب، في نظر

الانسان المحدود، غير مضمون النتائج. وان موقع ميرنا ليضاعف هذه القسوة. فيسوع يضعها بعد أمه، في المقدمة، ويطلب منها بالحاح متزايد أن تقوم بالخطوة الأولى، فتكره ذاتها كي تجتث جذور الأثرة أو الأنانية من نفسها ومن وجودها، تصلي، تخدم... وتبشر. وما البشارة في نظر صبية قد تجهل اللفظة ذاتها؟ وما هم؟ ثمة أمور كثيرة كانت تجهلها وتعلمتها في فترة زمانية قياسية. هو نفسه يعلمها، يقود خطاها... نحو المصير الذي أعده لها. ولكنه ينبهها الى أنه قد يتركها يوماً، قد يغيب وسيغيب حتماً. عندئذ سيكون حصار العالم لها أقوى بكثير من السابق... والواقع أنك كلما طلبت من يسوع الرحمة، هبَّ الى نصرتك، فهو لم يخذل أحداً. ولكنه يوماً على فجأة يطلب منك أكثر من استطاعتك. لا تقل: أنا عاجز، أنا ضعيف، أنا لا شيء، أنا عدم... أفليس هو مصدر كل قوة وكل وجود؟ أن تضاعف جهداً أنت عاجز عن القيام به، فذلك هو الشرط الذي، اذا ما تمكنت من تحقيقه، عشت على الأرض في سلام السماء.

طلب عسير. كلام قاس. الاستجابة له صعبة وأحياناً ممتنعة. ولكن أليس الصليب هو قسمة الانسان، أكاد أقول وضعه الطبيعي على الأرض، واليوم أكثر من أي يوم مضى؟ لنتذكر أن الآلة هي التي تسود الانسان وتخضعه لمتطلباتها حتى ولو كان صاحبها وسيدها، وان انتشار الآلة على نطاق واسع في العالم كله استثار من العقد والأحقاد والغرائز ما لم يعرفه الانسان طوال ماضيه الطويل، وما تعجز عن احتوائه وضبطه، كل الطرق العلمية التي استنبطت حتى الآن. والحصيلة هي ألوف الناس الذين يموتون يومياً جوعاً وعطشاً، برداً أو مرضاً، بحدّ السيف أو من الامعان في الترف. فلا عجب اذا كانت تكثر في رسائل يسوع كلمة الصلب والصليب، الألم والجراح... وأن يستحلف المصلي الآب السماوي بجراح ابنه في صلاة يسوع الثانية: (رسالة ٢٢ تموز ١٩٨٧).

«أيها الآب، بحق جراحات ابنك الحبيب، خلصنا».
فجراح الاله وحدها يمكن أن تتسع لجراح البشرية.

وقلب الاله الابن الذي هو فوق كل خليقة، فوق الملائكة، فوق كل مجد واكرام، وحده الصالح والعلي والقدير (القسم الأول من صلاة يسوع الأولى) وحده قادر على احتواء البشرية وفكّها من أسر الخطيئة (القسم الثاني). وبدونه فان الانسان فراغ وعدم (القسم الثالث)، (رسالة ٣١ أيار ١٩٨٤).

هذه الصلاة التي سبق وقلت انها نواة روحانية الصوفانية، كما أتوقع أن تتكوّن يوما في المستقبل، مركزة حول يسوع مخلص البشر أجمعين، من أية ملّة او طائفة كانوا. ويسوع هذا يطلب في رسائله من الانسان أن يبدأ بمواجهة وضعه الماسوي عوضاً عن تغليفه بالكلمات الكبيرة، أو الهرب من الحاضر الراهن تارة الى الوراء وطوراً الى الأمام. فبداية الخلاص في المصارحة مع الذات، تلي الصلاة التي هي طلب موجه الى يسوع «هبني ان أستريح فيك». ويبدو لي أنا اذا قرأنا الصلاة التي نحن بصددها، انطلاقاً مما تقدّم، نستطيع فهم العدد الأكبر من رموزها. وهاك نصها الكامل:

«يا يسوع الحبيب،
هبني أن أستريح فيك، فوق كل شيء، فوق كل خليقة، فوق جميع ملائكتك
فوق كل مديح، فوق كل سرور وابتهاج، فوق كل مجد وكرامة، فوق جميع جيش السماء
فانك أنت وحدك العلي، أنت وحدك القدير والصالح فوق كل شيء
فلتأت اليّ وتفرّج عني وتفكّ قيودي وتمنحني الحرية،
فاني بدونك لا يتم سروري
بدونك مائدتي فارغة.»

يقول الانسان هذا فيجيب يسوع:

«ها أنذا أقبلت لأنك دعوتني»

رسالة الصوفانية

يوماً رأى الناس العذراء. كان الأطفال أول من لمحها، وهي قادمة اليهم تناديهم: الأم، أمنا؛ الأم أمنا. قفزة واحدة، وها هم بين ذراعيها، تضمهم فرداً فرداً الى قلبها، ودموع الفرح تنسكب على خديها من عينيها الضاحكتين، وهم يداعبون شعرها، يمسون برفق ثوبها الأزرق، ويلفون وجوههم بوشاحها الأبيض، يضعون رؤوسهم على كتفيها، يمرّغون جباههم بكفيها المفتوحتين ـ دوماً مفتوحتين. يركضون، يرقصون، يصفقون، ينشدون. والملائكة ترتل معهم نشيد الفرح الأبدي والسلام الذي لا ينتهي.

الدنيا عيد، الأرض عرس. فقد الكون ثقالته. صار أثيرياً. فالعالم يعيش ساعات من الفرح الالهي قلما عرفها طوال تاريخه الطويل. لم يعد ثمة فرق بين الملائكة والأطفال، بين السماء والأرض، بين الأمل والواقع. الكل واحد، يمجد الله ويرنم مراحمه. كأن لم يبق في الوجود الاّ الأطفال والملائكة، الملائكة والأطفال.

ويزعم بعضهم أنهم رأوا، مع الأم العذراء، فتى وسيم الطلعة، مشرق الوجه، يتدفق من عينيه ينبوع محبة لامتناه، وكأنه يبارك. غيرهم لم يروا الاّ دفقاً من النور يملأ الأرض والسماء. وفي رأي فريق ثالث أن ثمة وجوداً الهياً كان يحيط بالعذراء مريم، ومنها يتساقط على الناس وكأنه يشدّهم الى أعلى. وعندما سألناهم: كيف عرفتم أن الوجود الذي رأيتموه الهي؟ أجابوا: ان الله تعالى هو الذي يشعرنا بوجوده. وهو الذي لا يحتويه مكان ولا زمان، يأخذ بيدنا ويقودنا الى حيث نجده. آخرون قالوا: حيث كانت العذراء، كانت السماء تتلوّن كل دقيقة بألوان يعجز الخيال عن تصورها لأنه يجهلها. وكانت تظهر وتتوارى في وسط هذه الألوان، رؤى الهية، لا تدري أهي عن يمين الأم أم عن شمالها، فوق رأسها، بجانبها أم في قلبها... ومن كان مع العذراء يا أطفال؟ فأجابوا بدون تردد: أخونا الأكبر، كان يأخذ كلاً منا بين ذراعيه ويرميه بين ذراعي أمنا.

عالم من الرؤى أيقنا كلنا يومها أنه الحقيقة، حقيقتنا التي نبحث عنها وقد أعطيت لنا هبة مجانية من لدنه تعالى. هبة تؤكد لنا أنها بانتظارنا، بانتظار الانسان حتى منتهى الدهر، ومعها السلام والفرح اللذان لا ينتهيان... ... وتؤكد أن الصلاة والخدمة هي الطريق الوحيد اليها.

ذلك هو يوم العذراء في دمشق. هو يوم انفصل عن الزمان ليبعث الحياة في الزمان. وفيه صار المكان فسحة روحية منها تستمد الأمكنة روحها ومعناها. فللأطفال حكمة الشيوخ، وللشيوخ مرح الأطفال ورشاقتهم. هو يوم المسامحة العامة والمعممة: ما لي فهو لك، وكل ما لك هو لي. لم يعد ثمة لي ولك. فعندما يوجد الانسان يزول الملك. صار الانسان شفافاً. فقد وزنه فكأنه يطير. وبالفعل فقد رمى الناس سياراتهم وبقية أمتعتهم جانباً، صارت عبئاً عليهم. وما عساهم فاعلين بالفضة والماس والذهب؟ أسفوا لأنهم قضوا حياتهم في طلبها! الانسان هو الجوهر والجوهرة. وعندما يصعد الانسان الى السماء يريد ذاته خفيفاً. ان العالم يعيش

ساعات من الفرح الالهي، قلما عرف لها مثيلاً طوال تاريخه الطويل.

قالوا: أهو حلم؟ كيف تصبح الأحلام واقعاً؟
أهي أمانينا؟ عندما تتحق الأماني؟
أهي أخيلتنا ورؤانا؟ ولكن الرؤى أفقر جوهراً من الواقع والحقيقة!

وذات مساء من عام ١٩٨٣ (رسالة ٢٤ آذار) أطلت الأم القديسة وهي باسمة تقول في بداية أطول وأغنى رسائلها:

« أبنائي،
مهمتي انتهت»

ـ أبهذه السرعة، يا أمنا، قلنا؟! أوليست هذه الأمسية هي عيد ذكرى بداياتك الأولى أنت؟

ـ النهايات في البدايات، يا أبنائي، وربَّ نهايات قد تكون بداية بدايات أبعد مدى من البدايات السابقة!

ولم نفهم فواصلنا حديثنا:
ـ ومتى تزورينا بعد الآن؟ أتتركين أطفالك يتامى؟ وأبناءك مشرّدين في هذا العالم الذي لا يرحم؟
ـ وهل أهملت يوماً أحداً منكم؟

وتربكنا العذراء بأجوبتها المفحمة، قبل أن ندرك معناها فنصرخ:

ـ نحتج، نرفض، نرجو، نصلي، نبكي، نقبل قدميك الطاهرتين، أنت التي لم يسمع أحد أنك أهملت واحداً من الذين لجأوا اليك طالبين مساعدتك...

ـ لا تحرجوني، تلك ارادة الذي، من العدم، خلقني وخلقكم. وهو على كل شيء قدير.

فيزيد ارباكنا، ونحن ما نزال نتساءل عن البداية والنهاية، وعلى معنى أن تكون البداية في النهاية. ثلاثة أشهر مرت على ظهور الزيت للمرة الأولى، ايذاناً بحضور الأم القديسة بيننا، والذي سبق تجليها هي بالذات لميرنا ولنا، نحن الذين تمثلنا

ميرنا؟ وفيما نحن نقول (تكفينا الأم القديسة)، اذا بها تفاجئنا بقولها بعد الكلام السابق:

«في هذه الليلة، قال لي الملاك: مباركة أنت في النساء، ولم أستطع أن أقول الآ: ها أنا أمة للرب»

وتضيف مباشرة: «أنا مسرورة.
أنا لا أستحق أن أقول لكم: مغفورة زلاتكم»

من الصعب على المرء أن يكتشف في نص رسالة العذراء الأم، العلاقة بين انتهاء مهمة الأم، تفكيرها ببشارة الملاك، قولها بأن مغفرة الخطايا ليس من شأنها، والسرور الذي تشعر به. هل يمكننا فهم هذه العلاقة بالرجوع الى مجموع رسائل الصوفانية، كما وردتنا حتى الآن؟ لحد كبير على الأرجح. فالتكامل بين الرسائل واضح. وعلى العموم لا يمكننا فهم أغلبها الا بوضعها من جهة في سياق حركة الصوفانية، ومن جهة أخرى باكمال بعضها بالبعض الآخر... والواقع أن الرسائل حلقات من سلسلة حلقات، كل منها تفسّر لحد ما ما سبقها وتعدّ للحلقات التالية.

ويبدو لي أن الأم القديسة، اذ تعلن انتهاء مهمتها، تبشّر بدخول الحركة التي بدأت معها، مرحلة جديدة من مراحل نموها، سيتولّى قيادتها بالدرجة الأولى ــ وبالتناوب معها أحياناً ــ ابنها يسوع، قدوس الله بدءاً من ٣١ أيار ١٩٨٤، ومعها تبدأ الانخطافات، ظهور جراحات الصليب على جسد ميرنا ورسائل يسوع، هذه الرسائل ستستعيد المعاني الرئيسية الكبرى التي شددت عليها الأم القديسة في رسائلها وهي (الصلاة الجماعية المستمرة ــ وحدة الكنيسة وضرورة العمل العاجل من أجلها ــ التبشير ــ دور الصوفانية التربوي):

«أنتم ستعلمون الأجيال القادمة معاني الوحدة والايمان والمحبة» (رسالة ٢٤ آذار ١٩٨٣).

ويضيف اليها معاني أخرى تشكل بمجموعها (رسالة الصوفانية الى عالم اليوم) وتضع النواة الأولى لروحانية الصوفانية أو للمحبة الروحية كما يمكن للمؤمن أن يعيشها اليوم، في قلب الحضارة التكنولوجية المبرمجة. والصوفانية بالنتيجة حركة

روحية. وسيقول يوماً يسوع للمصلين:

«مغفورة لكم زلاتكم لأنكم تنظرون الي» (رسالة ١٩٨٦/١١/٢٦) أي لأنكم ترون فيّ المعلّم والمخلّص.

بوسعنا تلخيص رسالة الصوفانية ـ أو ما تبشر به ـ بكلمة أستخلصها من كل ما سبق وقلته عن هذا الموضوع: رجوع الانسان ـ انسان اليوم ـ الى الله، أو بلغة المسيحية، عودة الأبناء الى الآب. هذه كانت وما تزال وستبقى الى نهاية العالم، رسالة كل دين سماوي، كل ايمان ينطلق من معنى الاله الواحد الخالق من العدم. ولكن أهي العودة اليوم ما كانت عليه بالأمس القريب والبعيد؟ أقل ما يقال في الجواب عن هذا السؤال، هو أن العودة الى الآب اليوم أعسر بكثير مما كانت عليه في السابق. اذ ان المرحلة التي نجتاز لا مكان فيها لله تعالى، أو هي فسحة صماء تستبعد كل ما هو روحاني، انها فسحة الانسان الآلي ومرحلة الآلة. وحيث يتوارى الروحاني يسيطر العالم، الذي ينتزع الانسان من يد الله، يشدّه كله اليه ويرده الى مجموع حاجاته ومصالحه، يحسبها ويضمنها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. فالهدف الأبعد لكل مؤمن بالله الواحد، من أي دين كان، هو مصالحة الأبناء مع أبيهم السماوي، أو باللغة التي أفضل، شق الفسحة التي يلتقي فيها الانسان مع الله.

هذه الفسحة خبرها، يعرفها المؤمن، كل مؤمن، في الصلاة التي، كلما امتدت، ترسخت، تعمقت، سلخت الانسان عن العالم، أنسته اياه وسلّمته لعناية الله. الصلاة هي أن تمنح ذاتك، حياتك، تاريخك، مستقبلك، وجودك للرحمن الرحيم، واثقاً به ثقة الطفل بأمه وأبيه. والايمان ان هو الا التسليم ـ الاتكال على الله ـ وهذه الثقة اللامحدودة واللامشروطة لمحبته اللامتناهية.

فالصلاة وسيلة من وسائل رسالة الصوفانية ـ تبشيرها ـ وفي الوقت ذاته غاية قصوى. انها فعل مجاني، ذبيحة (القلب المتواضع لا يرذله الله) اعداد واستعداد للفداء، لا غرض له سوى رضاه تعالى، رحمته، بركته. وبالفعل ففي الصلاة يصير المصلون انساناً واحداً، قلباً واحداً يخفق بمحبته تعالى، ومحبة بعضهم البعض. فالبشرية، كما يريدها يسوع، قلب واحد يقدم ذاته قرباناً لله، سائر نحو الله... كنيسة واحدة فيها يتمجد اسم الله.

أجل، تلك هي الكنيسة. تلي المؤسسات، العبادات، العقائد، التقاليد، الأبنية التي تجسّد كنيسة القلوب، تجعل منها حقيقة مرئية... ومن المؤسف أنا وضعنا هذه كلها قبل تلك (القلب الواحد) واختلفنا حولها وتفرّقنا شيعاً تتصارع على البقاء، كما يتصارع أبناء هذا العالم حول مصالحهم.

فالصلاة ـ الايمان أو الثقة المطلقة بالله ـ وحدة القلوب. فالكنيسة ـ التسامح، الخدمة، المحبة والفداء ـ هي الأبعاد الأربعة لرسالة الصوفانية وتبشيرها. وكلها، كل منها، في الوقت ذاته وسيلة وغاية أو وسيلة ـ غاية.

معان وأفكار قديمة قدم المسيحية، لا بل قدم الايمان بالاله الواحد؟! قد أجيب مع باسكال: الجديد هو ترتيب الأفكار القديمة ترتيباً جديداً.

ثمة سؤال يطرح هنا: هل تصحّ نعوتنا وتعارضاتها في معان وأفكار أصلها في الله؟ أبداً لأنها، بذاتها، مثله تعالى سابقة على أفكارنا ومعانينا ومتعالية عليها.

وعندما نجسدها أو نحققها على أرض الواقع؟

علينا عندئذ أن نضمن لها الشروط التي تمكنها من أن تعيش وتكبر وتنتشر وتثمر.

الواقع أن حركة الصوفانية تجاوزت، منذ بداياتها الأولى، الطوائف والمذاهب الدينية والايديولوجية. وهي دوماً مصرّة على هذا التجاوز لأن الله تعالى جعل من صاحبتها الأولى والمستمرة ـ أي الأم القديسة أو العذراء الأم ـ أما لكل البشر. الاّ أن الحركة لا يمكنها أن تستمر في تخطي الفوارق البشرية، الاّ اذا أثبتت جدارتها في بيئتها الأولى التي هي حيّ قديم من أحياء دمشق العربية المسيحية الأقدم، وفي نهاية القرن العشرين، كما يتعامل أهل ذلك الحي مع القرن وحضارته التكنولوجية. وهذا يتطلّب منا، نحن الذين نقصد كل مساء أو بين حين وآخر، ايقونة الأم القديسة، لا غرض لنا سوى الصلاة، أن ننشىء بالصلاة الجماعية المستمرة، بالتسامح ووحدة القلوب، بالخدمة المجانية... فسحة روحية نعيش فيها نحن، ويمكن لكل انسان، مؤمناً كان أو ملحداً، أن يتعرف فيها الى ذاته، الى انسانيته والى الاله الذي ينتظر دوماً عودة الابن الشاطر.

ما الصورة التي ستأخذها الحياة الروحية في بيئة عربية شعبية تحاول جاهدة التوفيق فالتأليف بين نمط من الحياة الفردية والجماعية، الدينية والحضارية مغرقة في قدمها، ونمط آخر يختلف جذرياً عن السابق تفرضه الحضارة التكنولوجية التي تغزو هذه البلاد؟ من العسير الجواب مسبقاً عن سؤال كهذا. الهام هو أن نشرع في تكوين هذه الحياة الروحية كي لا تتحول الرسالة الى مجموعة أفكار هي بمثابة هيكل عظمي خلو من الحياة. ان الحياة الروحية هي روح رسالة الصوفانية وروح أية رسالة أخرى. كما أن الحياة الروحية بدون رسالة، سرعان ما تصير مجموعة اندفاعات انفعالية تتكوّن ببطء وتزول بسرعة.

والحياة الروحية تتكوّن تدريجياً في صراع بطيء ومستمر مع المصلي ذاته ـ عاداته، ثقافته، عقده... ـ مع الجماعة أيضاً ـ تقاليدها، قيمها، أعرافها، طريقتها الموروثة في فهم المسيحية... ـ وصراع أخيراً مع الحضارة التكنولوجية التي تغزو العالم الفقير، بآلاتها ومجتمعها الاستهلاكي... على المصلين عملياً أن يشرعوا في الصلاة مصممين على الاستمرار فيها وعلى التسامح والتساند... وما يلي، من شأنه تعالى:

«لا تقولوا ماذا أفعل؟
لأن هذا هو عملي.
عليكم بالصوم والصلاة.
لأنكم بالصلاة تواجهون حقيقتي وتجابهون كل الضربات»

(رسالة ١٩٨٨/١١/٢٦)

وبمقدار ما تترسخ وتتعمق جذور الحياة الروحية في هذه البيئة العربية الشعبية المسيحية، بمقدار ما ان تصير قابلة للانتشار في العالم وتتجاوز الفوارق الطائفية والطبقية... ومن منا كان يتصوّر أن الصوفانية ستنتقل بقفزة واحدة من حيّ دمشقي مغمور الى لوس انجيليس، بعد أقل من ست سنوات من نشوئها؟ وكانت النقلة طبيعية. وفي لوس انجيليس كما في بيت ساحور (الأرض المحتلة) أو في معاد (لبنان)، في خبب أو في الحسكة والقاهرة، استجاب الله تعالى بآياته لصلاة المصلين، فتدفق الزيت من يدي ميرنا حيث وجدت، أو من الايقونة ذاتها حيث كانت غائبة، وأحياناً من الاثنين معاً.

ان المدخل الى روحانية الصوفانية هو الانتصار على الخوف. فالرسائل تعيد وتكرر باستمرار: لا تخافي، يا ابنتي، فأنا معك ـ لا تخافوا، يا أبنائي، فأنا معكم ـ علام تخافين يا ابنتي، وأنا معك؟... الخوف من السمات المميزة للوجود الانساني. والانسان اليوم خائف، على ما يبدو، أكثر من انسان الماضي القريب والبعيد. ولكن مما أو ممن يخاف الانسان؟ من الموت، يقول جماعة علم النفس التحليلي، الذين يرون الموت متضمناً في الحب بمعنى العلاقة الجسدية. أو يرون أن الحب يحيل مباشرة الى الموت. والموت يؤدي في حقيقته عندهم الى الفراغ المطلق.

«أنت تصلي فأنت رجعي». هذا الحكم الذي تصدره عليك الجماعة التقدمية التي تنتمي اليها، يجعلك بمثابة الميت في نظرها ـ ونظرك أحياناً! ـ وقد تصير منبوذاً من الجماعة اذا تمردت على أعرافها وتقاليدها. وقد يكون خوفك من ذاتك أو على مستقبلك، اذا خسرت الصفقة التجارية التي ربطت وجودك كله بها أو رسبت في امتحانك الذي ربطت مصيرك به. وقد يصاب الانسان بخوف مرضي اذا أفرط في الاهتمام بالجراثيم التي تحاصرنا كلنا، وأعتقد أنها ستنقل اليه مرضاً كمرض فقدان المناعة... والخوف من الفقر قد يصبح مقلقاً كهوس الخوف من الموت. ويشبهه الشعور بالفراغ الداخلي الذي يبدأ مع سن المراهقة، ثم يتوضّع في أسباب محددة كأن يعتقد المرء أن الثروة، المنصب، الشهادة هي التي تضمن له السيطرة على ذاته وعلى الناس، واخفاقه في تحقيق أي من هذه الأهداف. فثمة الشعور بالنقص، عقدة الدونية، شعور الانسان أن الأنظار مصوّبة نحوه، أن الناس يشيرون اليه ويتحدثون عن اخفاقه...

«عليكم أن تفتخروا بالله وحده» (رسالة ١٤ آب ١٩٨٨)

اذ في حين يربط الجسد الموت باللذة الجسدية (الحب)، ويشعرك بأن كل خطوة على درب الحياة الدنيا تقربك من القبر، يربط يسوع السعادة الأبدية ـ والفرح منذ الآن ـ بالصليب الذي هو العطاء، الفداء أو المحبة.

«من يؤمن بي فسيحيا وان مات»

ان في حياة الصوفانية الروحية البوادر الأولى لدستور حياة كاملة. والأرجح أن خطوطها الأساسية ستتحدد تدريجياً. والحياة الروحية مرادفة هنا للحياة ذاتها أو

للوجود الانساني. هذه الحياة تبدأ باكرام العذراء:

«ابنتي، هي أمي التي ولدت منها
من أكرمها أكرمني
ومن نكرها أنكرني
ومن طلب منها نال لأنها أمي»

(رسالة ليلة ١٤ـ١٥ آب ١٩٨٧)

وتتواصل برفقة الأم القديسة. الاّ ان حقيقتها هي صليب يسوع، مسيح الله الذي يجسد محبة الله اللامتناهية للانسان. فكل خدمة مجانية نقدمها للقريب هي اشتراك في هذا الصليب. ويبدأ الصليب بانكار الذات، بالامحاء أمام الآخر، الذي يبدأ به يسوع ذاته عندما يقول لميرنا في رسالة ١٩٨٧/١١/٢٦:

«أريد أن تضمي قلبي الى قلبك الرقيق فتتحد قلوبنا»

ثم يضيف مباشرة:

«لا تكرهي أحداً... أحبي الجميع على الخصوص الذين أبغضوك»

وقد سمعناه يقول لها: «احتقري ذاتك». وكمال الحياة الروحية في أن تكون مكرسة كلها للصلاة ولخدمة القريب. وقد يكون القريب هو الأسرة، الوطن، الفقراء والمعوزين الذين هم دوماً عندنا، وكذلك المصابين بعاهات جسدية أو روحية دائمة. ولقد وضع يسوع حياته الأرضية في خدمة الناس الذين اعتبرهم كلهم أنسباءه. وهو دائماً جاهز لتلبية نداء الانسان. ولا يطلب منا بالمقابل الاّ بعضاً من وقتنا:

«أعطيتكم وقتي كله
أعطوني جزءاً من وقتكم» (رسالة ١٤ آب ١٩٨٨)

ولكن اذا كان يسوع لا يطلب من الانسان الاّ بعضاً من وقته، فهو يطلب قلبه كله ويعلن أن هذا القلب هو له:

«قلبكم ملك لي» (رسالة ١٤ آب ١٩٨٨)

وقد جاء في الانجيل: «من ليس علي فهو معي» طالما أنا لم نعلن بأنا ضدّه، أو أنا اخترنا الهاً آخر الذي قد يكون المال أو الشهرة أو أي هدف عالمي آخر. كما

يطلب أن يكون هو الهدف الأخير لكل أعمالنا:

«هل كل ما تعملون هو حب بي؟» (رسالة ١٩٨٨/١١/٢٦)

وهنا صيغة الاستفهام تعني التنبيه الى أن العمل بهدفه أولاً، تلي النتائج. فيسوع يضيف مباشرة بعد الكلام السابق:

« لا تقولوا ماذا أفعل؟
لان هذا هو عملي.»

بهذا ــ بالقلب المكرس ليسوع والعمل وغايته الأخيرة (خدمة القريب) ــ تتحقق الصلاة التي علمنا اياها يسوع في أولى رسائله، وقد ذكرتها بنصها الكامل، أقصد يتحقق التحرر من العالم الذي علينا أن نخدمه ونحصل على الراحة في يسوع (يا يسوع الحبيب، هبني أن أستريح فيك) أو السلام.

والانسان، أياً كان، دوماً مع ميرنا، أمام الخيار الحاسم: الله أو العالم؟ الجسد وسيلة ــ الجسد غاية؟ الصليب أو الصنم؟ ... فعلام يختار؟ يختار بلسانه وعقله الله، وبكيانه كله العالم وأصنامه؟ علام هو دوماً معرض للسقوط؟ علام يسقط قبل أن يختار؟ علام يجد، عندما يثوب الى ذاته، أن العالم قد شدّه كله اليه، امتصه وانتهى الأمر؟ فهو للعالم لا لذاته ولا للذي خلقه؟ أويستطيع أن ينقذ ذاته؟ كلا! أبداً! ها هو يبحث عن الأعذار والأسباب: كان عليّ أن ألبي حاجات أولادي، مصلحة وطني... كان شرف أسرتي وشرفي في خطر... كنا مهدّدين بالموت جوعاً... وبالنتيجة لم أسيء الى أحد... ويوماً تسقط الأعذار المفتعلة. فالكذب كذب، والربح غير المشروع غير مشروع، الاعتداء على حق الغير غير جائز...

عقدة الخوف، عقدة الفقر، عقدة الجسد، هذا الثلاثي المرضي المتكامل ينخر الوجود الانساني من الداخل، يعطل وقد يوقف نموّه. فكم وكم من المواهب، من العبقريات السياسية والأدبية، الفنية والصناعية، الثقافية والتجارية... أفسدها وأحياناً شلّها؟... كم وكم من النفوس الكبيرة أذلها وأبعدها عن الله؟ وما السبيل لدرء خطره؟ الوسائل التي تحقق هذا الهدف معروفة، يمارسها أغلب الناس، منها، من أكثرها استخداماً، الغرور، الادعاء، الكبرياء، جمع الثروات الطائلة، وكل الوسائل هنا جائزة، الكذب، النهب، السلب، السرقة... منها التسلط، السطو على الآخر: ماله، شرفه، جسده...

يوماً يذكر الانسان حقائق صارت من طبيعته: لا تقتل، لا تكذب، ... ومن نظر الى امرأة غيره واشتهاها فقد زنى... يوماً تسقط الأقنعة. فالانسان وجهاً لوجه أمام نفسه، وحقيقته. على نتيجة هذه المواجهة يتوقف مصيره الأبدي: اما أن يهرب الى الأمام أو يسلك الطريق التي سلكها ويسلكها وسيسلكها البشر. ولم يعد يجعلني أتساءل ما اذا كان من الممكن لانسان أن يسلك غيرها. فالعالم يفرز الخطيئة. والآب الذي ينتظر الابن الشاطر، يترصّد خطاه... يشق له الطرق من أجل الرجوع الى بيت الآب الذي أعدّ له العجل المسمّن...

والأمر الذي لا شك فيه عندي هو أن الصوفانية هي احدى هذه الطرق، أحدثها وربما من أميزها، اذ كانت استجابة الأم القديسة وابنها يسوع سريعة لكل طلب من طلبات المصلين. لا بل ان كلاً منها استعمل بدوره المبادهة كما رأينا. وبهذا تحددت رسالة الصوفانية كما رأينا، وبدأت تتضح معالم روحانيتها. فطوال سبع سنوات وبضعة اشهر لم تنقطع الصلوات وتوالت الظهورات، الانخطافات، الرسائل، ... بالاضافة الى الزيت المتدفق باستمرار... وبقية الخوارق والآيات والاهتداءات على الخصوص. والانسان أي انسان، بحاجة دوماً الى طريق الهه يهتدي اليه.

أما الشعب فيشكر، يطلب، يرتل مجد الآب السماوي... يطيع أوامره، يمهد كي يتقيد بها وينتظر المزيد من رحمته.

هذا الشعب أعرفه. منه أمي التي حملتني تسعة أشهر في أحشائها، تسع سنوات على يديها وفي قلبها حتى وفاتها، همّ لا يفارقها. منه أبي الذي رعاني، وعندما يئس من عودتي الى الحظيرة، ما برح حتى الدقيقة الأخيرة من حياته يصلي الى الله كي لا أبقى يتيماً... هذا الشعب، أنا منه، وهو الذي قادني ويقودني، رغم اعتقادي يوماً أني من قادته، هو الذي رباني وجعلني صورة حديثة طبق الأصل عن صورته رغم حداثتها. أجل هذا الشعب الذي أعرفه لأني منه، هو شعب مغلوب على ذاته، يجترّ ماضيه. الا أن هذا الشعب مؤمن، ايمانه وجوده، ثقته المطلقة بالله، اتكاله عليه، استسلامه لارادته وصبره على الضيم... هي التي حفظته في الوجود حتى اليوم وصانته من الانقراض والتشتت.

أتكون ساعة فرجه قد دقت اليوم؟ على الأرجح. ولم لا؟ ثمة علامات كثيرة تدل

عليها، منها الصوفانية وآياتها.

كان هذا الشعب في الماضي يسأل بلهفة المستغيث: أين هي الأم القديسة، فنحمل اليها الورود والرياحين، ومعها قلوبنا المنهكة تقدّمها ذبيحة حية اليه تعالى، عسى تستجيب فتحمل الى الآب السماوي صراخ قلوبناالدامي، وتطلب رحمته لنا وللناس أجمعين. واليوم ها هي الأم القديسة ذاتها تأتي حاملة معها الينا ورود السماء، رياحينها ومعها العزاء والرحمة.

اليوم، في نهاية الأزمنة يصغي الرب الاله لأنين قلوبنا، ويبعث الينا بالأم العذراء تدشن لنا وللبشر كلهم أزمنة اخرى، وعهوداً جديدة ستكون بفضله تعالى أزمنة خير وبركة تعمّ العالم كله. ومع الأم القديسة، ابنها قدوس الله يشق لنا الطريق الى الآب السماوي، يدرِّبنا، يعلّمنا ويأخذ بأيدينا كي نجتاز بأمان طريق الحياة العسيرة فنبلغ معه شاطىء الأمان.

ارحمنا يا الله،ارحمنا فقد خطئنا اليك

استجب، يا قدوس الله، استجب

ارحم المظلوم والظالم، الرعية والراعي، المواطن والوطن والحاكم

ارحم الفقير والغني، الطفل والرضيع والشيخ الهرم، المريض والسليم.

ارحم الذي نسيك، والذي يذكرك

الذي لا يصلي والذي يصلي

الملحد والمؤمن

الأموات والأحياء

ساكني الأرض وساكني السماء

أليس يوم الأم العذراء في دمشق هو يوم الشفاعة، المسامحة، المصالحة للبشر أجمعين؟

من أتى منهم في الساعة الأولى ومن تلكأ على الطريق فوصل في الساعة الأخيرة! من وصل ومن لم يصل، من صام وصلّى، ومن لم يصم ولم يصل...

ألسنا كلنا أبناء الله واخوة يسوع الذي اشترانا بدمه الالهي؟ ألا ينتظر كل منا رحمته، على طريقته الخاصة؟

بصلبه وقيامته انتصر مسيح الله على الموت. وها هو الآب السماوي يستجيب

لشفاعة الام القديسة، يفتح أبوابه لجميع أبنائه، الأموات منهم والأحياء سواء بسواء... ولكل منهم قبلة المصالحة والعجل المسمن.

تلك معجزة الأم القديسة، انها أنزلت السماء على الأرض
معجزة ابنها يسوع، انه، بدمه، أزال الفوارق كلها بين الناس
معجزة الله تعالى، انه خالق الجميع، أبو الجميع، وان محبته شملت الجميع في يوم الأم القديسة وصوفانية دمشق.

دمشق في ١٥ آب (ذكرى انتقال الام القديسة الى السماء ١٩٩٠)

أنطون مقدسي

* * *